

ستون قاعدة في الدعوة إلى الله تعالى

إلى الشباب المسلم هذه أصول دعوتكم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٣ م

آخر تعديل كان بتاريخ ٢٩ ربيع الآخر ١٤٤٥ هـ

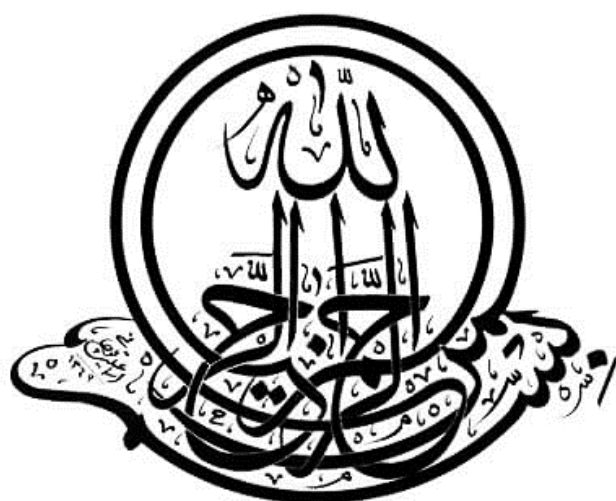
يمكن لهذا الكتاب أن يقرأ في أربع ساعات بشكل متوسط

ستون قاعدة في الدعوة إلى الله تعالى

إلى الشباب المسلم هذه أصول دعوتكم

ألفه

الدكتور محمد أبو النصر عطار



تقرير الأستاذ المربي عاطف بيانوني حفظه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فلقد قرأت كتابكم: «ستون قاعدة في الدعوة إلى الله»، وسعدت بما احتواه من نفائس الفكر، ورأيت فيكم فارساً معلماً يخوض رحاب الدعوة، فلا يترك شاردة ولا واردة مهمة إلا ويقتنصها بالتوصيف والأدلة، حتى جلي لمن بعده أصول هذه الدعوة المباركة وأصل لها، ولا أعلم كتاباً تناول هذا المجال، فلکم السبق، وهذا من توفيق الله، زادكم الله علماً وفهماً ونفع بكم، وجعلكم منارات هدى في هذا الزمن الحالك، ودمتم.

أ. عاطف بن أسعد بيانوني

حرر في ٦ ربيع الأول ١٤٤٣ هـ

الموافق ١٢ تشرين الأول ٢٠٢١ م.

تقريظ العلامة الداعية الشيخ عطية الوهيبي حفظه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فقد سعدت بالاطلاع على الأثر القيم النفيس الموسوم: «ستون قاعدة في الدعوة إلى الله» الذي خطته يراعة أخينا الداعية الحبيب وشيخنا الأديب اللبيب أبو النصر عطار حفظه الله تعالى ورعاه وسدد خطاه وبارك في مسعاه.

وقد ألفتته جم الفوائد يرفل في حلل اليمن والتوفيق والسداد، يضيء سبيل الرشاد للسائرين في طريق الدعوة إلى الله تبارك وتعالى رب العالمين، وهي أجل المهمات وأسمائها، وأعظمها وأعلاها، وأزكاها وأنماها، سر إسعاد الوجود ونيل مرضاة الله الغفور الودود والفوز بجنت الخلود.

وقد اجتنبى الله تعالى الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وختمهم بخاتم الرسل والأنبياء سيدنا محمد ﷺ هداية البشرية وإرشادها وتذكيرها بأيام الله جل جلاله وإخراجها من الظلمات إلى النور.

وقد استقى المؤلف النبيل جمهرة هذه القواعد والأصول من تجارب

المشايخ العلماء الدعاة، الأفاضل الأثبات الفحول، ممن لهم قَدَمٌ صدق في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، توفروا عليها وقرعوا لها الظُّنْبُوب^(١)، وخبروا الوسائل والمسالك والدروب، ينثرون العقول والنفوس والقلوب، يتغيون رضوان الله جل وعلا علام الغيوب.

وقد أنعم الله على المؤلف الكريم بصحبته والإفادة منهم، والتلقي عنهم، والتلمذة لهم ومن صحب السعداء سعد ورشد.

والعلماء العاملون هم مصابيح الهداية والموقعون عن الله رب البرايا وهازمو جيوش الضلالة والغواية.

وقد ركن الأستاذ المفضل في التأصيل الدعوي ورسم معالم الدعوة إلى الله تبارك وتعالى إلى آيات التنزيل الحكيم وأحاديث النبي ﷺ الصريحة الصحيحة، وورد مناهلها وحياضها، وعَلَّ ونهل واستفرغ غاية الوسع والجهد، مشمرا عن ساعد الاجتهاد والجهد، وأرجو أن يكون قد بلغ المراد فيما أراد.

جزاه خير الجزاء، وأفاض عليه النعم والآلاء، ووفقه لخدمة الشريعة الإسلامية الغراء، وأمة سيدنا محمد إمام الرسل وخاتم الأنبياء.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين وسيد الدعاة والمصلحين وقائد المجاهدين وعلى آله وصحبه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) الظنْبُوب: عظم الساق، ويجمع على ظنائب.

تقريظ فضيلة الشيخ سلمان بن عبد الفتاح أبو غدة حفظه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الكريم ولي من دعاه، والصلاة والسلام على إمام الدعاة، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، سيدي وحيبي وقرة عيني محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد: فقد طلب مني أخي الحبيب فضيلة الشيخ العالم المحقق المدقق الداعية إلى الله بحاله وقاله، المتفنن الموهوب الأستاذ محمد أبو النصر عطار أعلى الله مقامه في الدارين، أن أتشرف بتقريظ كتابه: «ستون قاعدة في الدعوة إلى الله» فأقول - وبالله التوفيق -:

لقد قرأت كتابه كاملاً، ووجدته ذخيرة وزاداً وسراجاً ومنهاجاً للدعاة إلى الله، وأنا أنصح كل من تشرف بحمل لواء الدعوة إلى الباري جل في علاه أن يقرأه، ويطبّقه، ويمثله في أساليب دعوته، ومناهج هدايته. والله أسأل لأخي أبي النصر ولكافة الدعاة العاملين في الزمن الصعب الإخلاص والقبول والسداد والرشاد والهداية والتوفيق. اللهم استعملنا في طاعتك ومرضاتك ونشر دينك. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه الفقير إليه تعالى

سلمان أبو غدة

جدة ١٤٤٠/١٢/٢١ هـ

المؤلف في سطور

- ولد في حلب سنة ١٤٠٠ هـ، وتلقى القرآن في الكتاتيب، ثم التحق في المرحلة الإعدادية والثانوية بالمدرسة الشعبانية في حلب وتلقى العلم على يد مدرسيها، ثم تخرج في الأزهر كلية أصول الدين، وبعدها نال الماجستير من جامعة بيروت، ثم الدكتوراه في الحديث الشريف فيها أيضًا.

- كما تلقى العلم على ثلة من أكابر عصره أهمهم والده الشيخ محمد جميل، والشيخ أحمد القلاش، والشيخ محمود ميرة، والشيخ محمد عوامة، والشيخ محمد زهير الناصر، والسيد محمد بن علوي المالكي، والشيخ عبد المجيد البيانوني، والشيخ محمد سعيد بادنجي، والشيخ صلاح الدين الإدلبي، والشيخ عبد الوكيل الهاشمي، والشيخ محمد علي طه الدرة وغيرهم.

- عمل في الدعوة إلى الله تعالى من خلال التعليم في حلق القرآن الكريم، والتدريس في المعاهد الشرعية، والحلق المسجدية، والوعظ، والإمامة والخطابة.

- درّس مادة الدعوة في المعاهد الشرعية لبضع سنوات.

- متفرغ للدعوة إلى الله تعالى في مجمع سلطان العلماء.



ذاق طعم الدعوة إلى الله من اتخذ الكتاب صاحبًا،
والشيخ خليلاً، والتبليغ والإرشاد ديدناً.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ: «أَعْرَبْنَا فِي الْكَلَامِ فَمَا نَلْحَنُ
وَلَحْنًا فِي الْأَعْمَالِ فَمَا نُعَرِّبُ».

لَمْ نُؤْتَ مِنْ جَهْلٍ وَلَكِنَّا نَسْتُرُ وَجْهَ الْعِلْمِ بِالْجَهْلِ
نَكْرَهُ أَنْ نَلْحَنَ فِي قَوْلِنَا وَلَا نُبَالِيَ اللَّحْنَ فِي الْفِعْلِ^(١)

(١) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي، ص ٩١.



الإهداء

إلى صاحب المقام المفرد في الدعوة

إلى الذي لو اجتمع الأنبياء والمرسلون في صعيد واحد، وطلب من أحدهم أن يحاضر في أصول الدعوة لما اشرأبت الأعناق لغيره.

إلى الذي خرج الدم من قدميه ليبلغ الأمة

إلى من حمل كل أمته همّ الدعوة فقال لهم: «بلغوا عني ولو آية».

العلم منكم وإليكم مهدي سيدي، ما كان من فضل فهو نقطة من بحركم المظم، وما كان من غير ذلك فهو من الناقل البئيس.

إلى الحبيب الذي تُرَجَى شَفَاعَتُهُ عِنْدَ الصِّرَاطِ إِذَا مَا زَلَّتِ الْقَدَمُ

إلى فخر الكائنات وعلم الموجودات سيدنا محمد ﷺ

إلى مقامكم الرفيع سيدي أهدي هذا الجهد، مع الإقرار والاعتراف بقصر الباع، وقلة الزاد.



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة : وفيها ملخص كامل الكتاب

الحمد لله الذي بين للناس وهداهم النجدين، وأرسل لهم رسل الهداية لصلاح الحياتين، والصلاة والسلام على من بعثه الله بالبيضاء النقية، والدعوة الغنية، والرسالة السامية العلية، فبشر الناس بالهدى والصلاح، وأنذرهم بطش الله وانتقامه، فكانت دعوته ضوءًا ونبراسًا يقتدي به الدعاة والعلماء، وأضحى منهاجه سراجًا لورثة الأنبياء.

لم يبالغ حبيبنا ﷺ في دعوته بالترغيب كي لا يأمن الناس بطش الله، ولم يزد في الترهيب كي لا ييأس العباد من روح الله، بل وازن في حديثه الهادي، وأبلغ رسالة ربه الباري، وما سد بابًا إلا وفتح أمامه بابًا أو أبوابًا، ولا نهى عن منكر إلا وراعى حال الناس جيئة وذهابًا.

هذب الجبابرة حتى أضحوا أذلة على المؤمنين، ورفع الضعفة حتى سادوا وقادوا في سماء الدين، من جاءه مغضبًا خرج من عنده مبتسمًا، ومن أتاه ممتحنًا رجع والإسلام تاج على رأسه معلمًا، كم تحده الطغاة ليترك دعوة ربه فما توانى، بل زاد في التبليغ حتى كاد أن يبخل نفسه وتفانى، تحمل همّ الضعاف ونصرهم حتى ظهروا، ومن أسلم من أشرف القوم سادوا وقادوا، ومن تنكبوا ذلوا وهانوا.

لقد كان من شمائل الحبيب ﷺ أنه دائم الاتصال بربه، ويخضع ويسجد ويزداد من قربيه، شعاره الدائم: أنت وليي في الدنيا والآخرة فأصلح لي

حالي، وطريقه المستقيم: إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي.

رعى الغنم، ثم أضحي راعي الأمم

أَعْظَمُ بِرَاعٍ رَعَى الدُّنْيَا بِحِكْمَتِهِ كَمَا رَعَى فِي الصَّبَا نَزْرًا مِنَ الْغَنَمِ

وخصف النعل وخاط الثوب وحلب الغنمة، بعد أن أم الأنبياء ورأى ربه وكلمه، لو شاء أن يكون نبياً ملكاً لكان، ولكنه اختار العبودية ولان، ما حبس المال عنده وهو الثري الأغني، كيف لا وقد منّ عليه ربه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، حث الأمة جميعاً على الدعوة لكن مع الثبوت والترث والتبيين، ونبه أعظم تنبيه للمبلغين، فقال: «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»^(١).

غضب مرات من دعوة من دعا على غير بصيرة، وأنكر كرات ما يهدم الدعوة وإن كانت بنية صحيحة، فقال: «إِنَّ مِنْكُمْ مُنْقَرِينَ»^(٢)... وإن كانوا للخير مريدين.

لم يثنه عن دعوته إعراض من أعرض وكذب، ولا طعن من أساء وتذبذب، ولم يغره تأييد من أيده، كما لم يبطل دعوته لموت الناصر لما فقده، بل حبله بربه متصل، وقلبه عن سواه منفصل، يخاطبه وهو الذليل بين يدي ربه العالي: «إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي»، من عارضه لان له الحديث ليوصل النور إليه، ومن آذاه في نفسه لم ينتقم لها شفقة عليه.

إنه كان من سيرة النبي ﷺ أنه قَوِيَ بأصحابه وما اعتمد عليهم، بذل

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم: ٧٠٢، ومسلم برقم: ٤٦٦.

ثلاث عشرة سنة من وقته في تعليم بضعة عشرات منهم، لكن المفاجأة أن جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دينه أفواجا، وخرج الملبي ينادي أن جاء البشير النذير فَهَبُوا أَمْوَاجًا، وَتَقَبَّلَتِ النفوس المنكرة رسالة السماء بصدر رحب منير، وقلب فسيح كبير، وبعد أن كان أبغض الناس إليهم أصبحوا يفدونهم بالنفس والمال، والله ما تنخم نخامة إلا سقطت بيد أحدهم في الحال، وربما اقتتلوا على وضوئه دون رفع القال.

لقد كان من حكمته أنه يراعي قرب الناس من الإسلام، فيطلب من كل شخص ما يناسب حالته قربًا وبعدًا، قوة وضعفًا، ولكن بأمن وسلام، فلم يدفع الإسلام كله لكل جديد، وإنما أعطاه بقدر ما يصلح له، حتى يراه شغوفًا بالزيادة منحه، حديثه كأنه الشهد تسكر الأذن لسماعه.

كم غيّر في أسلوبه حتى يلائم السامع، وكم نوع في خطابه كي يسعد به الطامع، مرة يسأل أصحابه ليعلمهم، ومرة يحكي قصة قوم ممن سلف ليهدي إليهم، وتارة يقدم مقدمة بين يدي كلامه، وأحيانًا يخاطب بشكل مباشر، وربما قال: ما بال أقوام يفعلون كذا دون أن يباشر.

تألف القلوب وما نفّرها، وحببها دون أن يطمعها، لان بين يدي الأرملة ومن في عقلها شيء حتى كأنه الأب الرؤوم، بل هو أعظم، همه النصيح لا الانتقاد، ينصح بكتمان ما دامت النصيحة ممكنة، ويبين الحكم دون أن يلح منه أحد أنه منتقده، تواصل مع الناس حتى أصبح الوحيد لحلّ مشكلاتهم، وتقدم الركب حتى اختفى خلفه الجموع في معضلاتهم: إذا فزع أهل المدينة بصوت تلقى الناس وهو راجع وقد استخبر الخبر، ونشر الطمأنينة

بينهم ونثر، رجع بقوله: «لَنْ تُرَاعُوا، لَنْ تُرَاعُوا»^(١)، وإن استعصت الصخرة الصماء عليهم لم يفلقها غيره^(٢)، أشجع الشجعان خلفه في كل حرب ومدهمة، أقرب أصحابه للعدو عند اشتداد الحرب واحمرار الحدق^(٣) والمستعصيات المهمة.

أجل؛ لقد كان من أخلاقه أنه يدعو إلى الله ولو كان في لحظات الدنيا الأخيرة: «الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»، ويزور من روحه تتوقع وتكاد تخرج طمعًا في إيمانه وإسلامه، زار كبيرًا في قومه وهو في سكرات الموت، وحرص على هدايته وقلبه يقطر دمًا ويقول: «يا عم: كلمة أشفع لك بها عند الله...» كما زار غلامًا يهوديًا ضعيفًا في المجتمع، لا قيمة له ولا جاه، وجلس عند رأسه وهو في السَّوْق، حتى أسلم فخرج وهو لا يحمد غير الله.

يتابع أصحابه الكبير والصغير، والمسكين والفقير، والخادم وذا المال، فلو ماتت مسكينة تُقَمُّ المسجد لما رضي أن تدفن دون إعلامه، بل ذهب إلى قبرها بعد قبرها، وصلى عليها.

يدعو لطفاتهم بالهداية قبل أن يدعو عليهم بالأخذ والعقاب، يبادل أحبابه وأصحابه الحب ويصرح بأعذب الألفاظ لمن لم يرهم، كلامه كأنه

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٠٣٣، ومسلم برقم: ٢٣٠٧.

(٢) في صحيح البخاري برقم: ٤١٠١، أن جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّا يَوْمَ الْخُنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضْتُ كُدْيَةً شَدِيدَةً، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخُنْدَقِ، فَقَالَ: «أَنَا نَازِلٌ». ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِئْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ، فَعَادَ كَثِيبًا أَهِيلَ، أَوْ أَهَيْمَ.

(٣) روى أحمد في مسنده برقم: ١٠٤٢، عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: لَمَّا حَضَرَ النَّبَأُ يَوْمَ بَدْرٍ اتَّقَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ، مَا كَانَ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْهُ.

مغناطيس يجذب القلوب القاسية مع القلوب الرحيمة، لطيف في طرح صورة العقاب لا يواجه الناس ببشارة العذاب عليهم، إلا إن أمره ربه بذلك، ينظر إلى محاسن المذنب بدل النظر إلى ذنبه: «مه يا عمر! لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، «لا تسبوه! فوالذي نفسي بيده ما علمته أنه يحب الله ورسوله».

همته في الدعوة أكبر من همة الناس مجتمعين، وكأن شعاره: لأهدين الناس أجمعين، لقد أيقن بوعده ربه له، فأقسم مرات أنه ليرى الله هذا الأمر حتى يمشي الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، «وَاللّٰهُ لَيَبْلُغَنَّ هَٰذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالتَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَٰذَا الدِّينَ بِعَزِّ عَزِيزٍ، أَوْ يَذُلَّ ذَلِيلٌ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»^(١).

ينصح المخطئ من غير تعرية، ولا إشعار له بأنه قليل، فكم أشاد بجوانب الخير فيمن أخطأ وأساء، ما كلم إنساناً قط إلا أثر فيه، سواء منهم من أظهر الهداية ومن كابر، ووالله ما زاد في طغيان أو ذنب خاطئ ومخطئ.

لقد رحل في سبيل تبليغ الدعوة، واستقبل من جاءه، وأرسل رسله إلى الأبعدين، وحمل غيره الكتب والمراسلات، لم يؤلف كتاباً قط ولم يحظَ بيمينه، ولكنه ألف القلوب والرجال.

لم يجلس إلى جبار إلا أثر في حاله، ولم يكلم فقيراً إلا جبر من ضعفه، وما جالسه مستفيد إلا غرق بالأخلاق والمعرفة.

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم: ١٦٩٥٧، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

تم الأخلاق الحسنة، وحسّن الشيم النبيلة، وحرك الإيمان وجدده، لم ينكر منكراً إلا وأعطى البديل المناسب عنه، لم يقتل الروح بكثرة النواهي، ولم يفنّ الجسد بكثرة الطلب، كلامه فصل بين الكلامين، إن لحظ في العاصي غروراً بالله حدثه عن الوعيد، أو لمح فيه اليأس والقنوط كلمه عن كرم الكريم، يُقبل على أصحابه قبل الأبعدين، ويؤلف قلوبهم ويتفقدهم كالأب الرحيم.

من جاءه جديداً شجعه على المعروف، ورضي منه بالقليل، يحارب التغيير المفاجئ، ويذم الطفرة الفاقعة، يقدم الأهم على المهم، والفروض على النوافل، والكبائر على الصغائر، إحسانه يغرق من حوله، ويشبع نهمة الطامع، ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً.

ما أجمل إفهامه، وما أقل إلزامه، تهمة الجواهر لا المظاهر، ويعنى باللب الثمين لا القشر المهين، يلف المخطئ بثوب التريّة، ويعلم الجاهل بلسان التنمية، يدعو الناس بما ترقى إليه عقولهم، ولا يُغرب القول عليهم بما تنكره أفئدتهم، يحل لهم المشكلات، ويلقنهم المحكم والواضحات.

يبشر أصحابه بالمكاسب الدنيوية والأخروية، والعطايا والمنح الإلهية، همه في أمته أكثر من نفسه وذويه، يعامل أصحابه كالأب، ولكنهم عنده ليسوا بسواء، يتسع قلبه للنقاش، ويفتح صدره للحوار، من حار في مسألة لجأ إليه وآب، ومن عرضت له شبهة راجعه واستشاره وأتاب، يحسّن الحسن وينمي، ويقبح القبيح ويوهيه، لم يترك مناسبة عند أصحابه إلا شارك فيها، يقول ناعته: لم أسمع بعظيم قبله ولا بعده مثله.

فصلوات ربي عليه ما توالى الليل والنهار، وعلى آله وصحبه السادة الأطهار، والأئمة الأبرار، وعلى كل من سار على نهجهم إلى يوم لقاء المليك الجبار. أما بعد: فهذه قواعد سطرتها، وخطوط رسمتها، لشباب الأمة التي شرفها الله بالدعوة، وأفراد حملها رسول الله ﷺ رسالة الإسلام، ليكون المبلغ لهذه الرسالة على بصيرة، تثمر دعوته إلى الله نجاحًا، وكم من مريد للدعوة جاهل في أساليبها ووسائلها، آلت دعوته إلى البوار، وأخفقت رسالته في الناس، ولم يزد المدعو من الله إلا بعدًا.

وواضح لكل مهتم بهذا الدين وصلاح العباد أن الأمة دائمًا بحاجة لإعداد الدعاة الجدد، الذين تبصروا في الحياة، وفهموا دينهم، وحملوا رسالتهم، ورفعت كواهلهم هم الدعوة، ولكن هذا الإعداد لا يكون مثمرًا إلا إذا ألم بجميع جوانبه، من حيث العقيدة، والأخلاق، والخبرة، والأساليب، والفكر، والحركة، وغيرها من المقومات، النفسية والمعنوية والفكرية والثقافية والعلمية.

لهذا؛ جعلت هذه القواعد هي الأساس الذي لا يسع الداعي إلى الله جهله، استخلصت جلها من خبرات شيوخ الكرام، ومن الممارسة الدعوية التي تكرم الله علي بها، معتمدًا في أكثرها على الآيات والأحاديث النبوية، كما اعتمدت على القصص والتجارب الدعوية، لما فيها من إيصال المعلومات بشكل سريع، وقد استغرق القصص في الدستور الأعظم - وهو القرآن - الحيز الكبير، وقال الله تعالى لنبيه: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

نعم؛ إن في قصص العلماء وتجارب الدعاة لعبراً ودروساً، وهي تعطي للسائر في طريقهم تنبيهات ولافتات يتوقى بها المطبات التي قد تعثره، ويبتعد عن الحفر والأخطار المخبأة له في جوانب الطريق، ويبدأ حيث انتهى الدعاة.

وأحب أن أنوه بأمر، وهو أنني اعتمدت بشكل كبير على الدروس الدعوية المودعة في الأحاديث النبوية، فكنت - وما زلت - كلما مررت بحديث له ارتباط بالدعوة حفظته عندي، واستشهدت به في مناسبتة الصحيحة، ولم أنقل من الآيات الكريمة كثيراً، لأن اعتقادي أن آيات القرآن قد ألفت فيها تواليف كثيرة، ولا سيما في أنباء الرسل ودعوتهم لأقوامهم، أما الحديث الشريف فلم يخدم بهذه الدرجة، فكان جُلُّ اهتمامي به، مع بيان درجة الحديث المستشهد به، إلا في أحاديث الصحيحين، والقصد أن يكون هذا الكتاب لينةً تُقدَّم جديداً في ساحة التأصيل الدعوي.

ثم إنني جعلت الكتاب على شكل قواعد، أكتب القاعدة بعد الرقم بخط عريض يتميز عما بعده، ثم أشرحها.

وبعد الانتهاء من الكتاب، عرضته على سادتي وشيوخي الأكارم الأجلاء، كما أرسلته إلى عدد من أفاضل إخوتي أهل العلم والفضل، ليتكروا علي بنظراتهم فيه، ويجودوا بتصحيحاتهم، وهو ما حصل والله وحده الحمد والمنة، فقد أرسلت الكتاب إلى السادة الأكارم: والدي الكريم الأستاذ الشيخ محمد جميل عطار، وخالي الأستاذ عاطف بيانوني، والشيخ صلاح الدين الإدلي، والشيخ عطية الوهبي، والشيخ علي نايف الشحود، والشيخ سلمان

أبو غدة، والشيخ عدنان السقا، والدكتور عبد البديع نيرباني، والأستاذ علي بن أحمد سنده، وغيرهم، وقد تكرموا بقراءته وإرسال الملاحظات لتصحيح الكتاب، فأفدت من تصحيحاتهم القيمة، وقد أثروا الكتاب بما لديهم من فوائد وفرائد، فجزاهم ربي الجنان، كما تكرم بعضهم بالتقريظ للكتاب، والله يثيبهم على كلامهم.

اللَّهُمَّ اشهد أني قد أحلت هؤلاء الأفاضل عليك جميعاً؛ لتكافئهم على معروفهم، واجعل اللهم هذا الكتاب سبباً للنجاة بين يديك، ودخول الجنة صحبة النبيين، واقبله بقبول حسن، واكتب به النفع والإفادة، إنك ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله أولاً وآخراً.

كتبه

أبو النصر عطار

وكانت آخر مراجعة للكتاب صباح يوم الخميس ١٤٤٣/٣/٨ هـ الموافق لـ: ٢٠٢١/١٠/١٤.



القاعدة الأولى

١. نوع في أسلوبك للمدعو بين الأسلوب

العقلي والقلبي والعاطفي والمصلحة المادية

والقبليّة وغيرها من غير قرب من النفاق.

لقد كان في تنويع النبي ﷺ خطابه نجاح عظيم، فلم يكن ليخاطب العقل فحسب، ولا القلب فقط، ولا المصلحة دون غيرها، إنما يخاطب كل شخص بما يؤثر فيه.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي بِالزَّيْنِ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: «إِذْنُهُ» فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ» قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ» قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ» قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ» قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَاتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ» قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ» قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ^(١).

(١) أخرجه أحمد برقم: ٢٢٢١١، وقد حكم محققو المسند على إسناده بالصحة.

في الحديث الشريف الأنف استعمل الحبيب ﷺ عدة أساليب مع شخص واحد، استعمل الأسلوب العقلي بالحوار، والمقارنة بين ما يقترفه المقترف مع نساء غيره، وبين حرصه على صون عرضه، واستعمل الأسلوب الحسي: بقوله: «أذنه»، واستعمل الأسلوب العاطفي حيث وضع يده على صدره ودعاه له^(١).

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية استعمال لأساليب كثيرة: منها: أسلوب الإغراء بالمحسوب، كَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ ابْنِ أَثَاثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقَرِهِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ - وذلك أنه تكلم بأمر الإفك، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي أَحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الثَّقَفَةِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ^(٢).

ومنها: أسلوب دحض الشبهة، كما جاء عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَفْتِيهِ، وَهِيَ تَسْمَعُ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنُبٌ أَفَأَصُومُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَنَا تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنُبٌ فَأَصُومُ»، فَقَالَ: لَسْتُ مِثْلَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَحْشَاكُمْ إِلَهُ،

(١) كنت قد سمعت هذه الفائدة من أحد الشيوخ، ثم قرأتها في النت في موقع إسلام ويب غير معزوة لأحد.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٧٥٠، ومسلم برقم: ٢٧٧٠.

وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا آتَيْتُ^(١).

ومنها: الأسلوب القبلي، فقد استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب بما يخدم الدعوة لا ما يصادمها، وهنا لا بد من تنبيه: وهو أن ذات الكلام عن القبيلة أو الجماعة قد يُعمل به على سبيل البناء، كما قد يستعمل شرارة حريق لجاهلية، فعلى سبيل المثال قد قال النبي ﷺ للأنصار: **«لَوْ أَنَّ الْأَنْصَارَ سَلَكَوا وَادِيًا، أَوْ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ فِي وَادِي الْأَنْصَارِ، وَلَوْ لَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأًا مِنَ الْأَنْصَارِ»**^(٢). وفي الوقت ذاته حارب كلمة المهاجرين والأنصار لما استعملت للتمييز العنصري، وذلك فيما حكاه جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَمَّا قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ^(٣) رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **«مَا بَالُ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ»**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: **«دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ»**^(٤).

ومنها: أسلوب حسم الخلاف وقطعه بإقناع الناس، عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طَهَّرْنِي، فَقَالَ: **«وَيْحَكَ! ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ»**. قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، طَهَّرْنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«وَيْحَكَ! ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ»**. قَالَ: فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ

(١) أخرجه مسلم برقم: ١١١٠.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٧٧٩.

(٣) معناها: «أي: ضرب دبره بيده» النهاية في غريب الحديث» مادة: كسع.

(٤) أخرجه البخاري برقم: ٤٩٠٥، ومسلم برقم: ٢٥٨٤.

اللَّهُ، طَهَّرَنِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ: «فِيمَ أَطَهَّرَكَ؟» فَقَالَ: مِنَ الزَّئِي، فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَبِهَ جُنُونٌ؟» فَأُخِيرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ، فَقَالَ: «أَشْرَبَ خَمْرًا؟» فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ^(١)، فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمَرٍ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَزْنَيْتَ؟» فَقَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ، قَائِلٌ يَقُولُ: لَقَدْ هَلَكَ، لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: مَا تَوْبَةٌ أَفْضَلُ مِنْ تَوْبَةِ مَا عَزِرَ، إِنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: افْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ، قَالَ: فَلْيُتُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُمْ جُلُوسٌ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِمَا عَزِرَ بِنِ مَالِكٍ». قَالَ: فَقَالُوا: غَفَرَ اللَّهُ لِمَا عَزِرَ بِنِ مَالِكٍ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قِسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ»^(٢).

ومنها: أسلوب رد المتشابه بذكر المحكم من غير نقاش بالمتشابه، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ يَهُودِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْخَلَائِقَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَرَأَ: «﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾» [الأنعام: ٩١].

وفي رواية: فَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَضْحَكُ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَعَجُّبًا وَتَصَدِيقًا لِقَوْلِهِ^(٣).

(١) أي: شم نكهة فمه ورائحته.

(٢) الحادثة في الصحيحين، وهذا أخرجه مسلم برقم: ١٦٩٥.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٧٤١٤، ومسلم برقم: ٢٧٨٦، وبيان الإعجاب والتصديق من تحليل الصحابي، وليس من تصريح النبي ﷺ بذلك.

قال ابن بطال (ت: ٤٤٩ هـ) رحمه الله: «وحاصل الخبر أنه ذكر المخلوقات، وأخبر عن قدرة الله على جميعها، فضحك النبي ﷺ تصديقاً له وتعجباً من كونه يستعظم ذلك في قدرة الله تعالى، وأن ذلك ليس في جنب ما يقدر عليه بعظيم، ولذلك قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، أي: ليس قدره في القدرة على ما يخلق على الحد الذي ينتهي إليه الوهم، ويحيط به الحصر، لأنه تعالى يقدر على إمساك مخلوقاته على غير شيء، كما هي اليوم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، وقال: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]^(١).

فمن رام نجاح طريقه فليعدد في أساليب دعوته، ولا يقتصر على طريق واحد، فما تنجح الدعوة إلا إن تنوعت الأساليب، وتلونت أنواع الخطاب.



(١) «شرح صحيح البخاري» ١٠: ٤٤١.

القاعدة الثانية

٢. الاتصال بالخالق تبارك وتعالى قبل كل اتصال بمخلوق وبعده

أعجبني أمر يجيده إخوتي جماعة الدعوة والتبليغ، وهو أنه متى قام أحدهم للكلام توجه الجالسون بدعاء الله تعالى أن يوفقه الله لحسن العرض، وأن يفتح آذان السامعين له.

في دروس الدعوة وتعليم أصولها يأتي النص على الأساليب والطرق والحكمة في الدعوة، وربما لا يتم الشرح الكافي والتركيز على الالتجاء إلى الله تعالى قبل التوجه للدعوة وبعده.

لعل من أهم عوامل النجاح للداعية قوة الاتصال مع الله، إذ إن من أهم السمات التي يجب أن يتصف بها الداعية الاعتناء بالجانب الروحي الرباني، لأن إحكام الأساليب الدعوية والوسائل أمر مهم عظيم، لكن الخطأ الفادح أن يعتمد الداعي عليها، وينسى الجانب الروحي الذي يجب عليه أن يسلكه أيضاً.

وما أبرز جانب الربانية في سيرة رسول الله ﷺ الدعوية، وكم كان لها حظ وافر في حياته، وعلى سبيل المثال أسلط الضوء على سيرة رسول الله ﷺ في: اتصاله بالله تعالى قبل الدعوة إلى الله، ثم اتصاله بالله بعد الدعوة.

وهاتان مسألتان:

المسألة الأولى: الاتصال بالله تعالى قبل الدعوة:

الاتصال بالله تعالى في الالتزام الخلقي الشخصي، والعبادة الذاتية، وهذا أضخم من أن يؤتى عليه بدليل، فقد كان النبي ﷺ ملتزماً بالعبادة وملازماً لها قبل دعوة الناس، ابتداء من تعبدته في غار حار، ثم في أثناء الدعوة لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمِلُ ﴿١﴾ فَرِائِلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ يَصْفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَبِّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ١٠] وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدِيرُ ﴿١﴾ فَرِائِلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٢]، والآخر: فيه الأمر بالدعوة، فقال له: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدِيرُ ﴿١﴾ فَرِائِلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٢]. وذلك ليكون الداعية متوازنًا، فلا هو منهمك بالدعوة على حساب العبادة والتبتل، ولا غارق بالعبادة منصرف عن الدعوة والإنذار.

وقد أفادني شيعي الجليل الداعية الشيخ عدنان السقا (ت: ١٤٤٢ هـ) رحمه الله: أن الله تعالى أمر نبيه بأمرين: الأول فيه العبادة وقيام الليل: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمِلُ ﴿١﴾ فَرِائِلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، [المزمل: ١ - ٢]، والآخر: فيه الأمر بالدعوة، فقال له: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدِيرُ ﴿١﴾ فَرِائِلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٢]. وذلك ليكون الداعية متوازنًا، فلا هو منهمك بالدعوة على حساب العبادة والتبتل، ولا غارق بالعبادة منصرف عن الدعوة والإنذار.

والاتصال بالله تعالى والتوجه إليه يكون ليلهمه العبارة الصحيحة، واللهجة المؤثرة، وأن يكتب القبول لدعوته، بأن تصادف الدعوة قلب من يدعوه.

المسألة الأخيرة: الاتصال بالله تعالى بعد الدعوة:

وربما تكون الاستجابة بالرد الإيجابي، وربما تكون بالتوقف، أو الرد السلبي.

إذا رأيت الاستجابة من المدعو فاحمد الله تعالى أن وفقك لذلك، ففي الحديث الصحيح: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ» فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ، وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطْعَ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

وإذا رأيت التوقف أو الصد والإعراض فادع الله لهم بالهداية: في الصحيحين: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَدِمَ طِفْلٌ بَنُ عَمْرِو الدَّوسِيِّ وَأَصْحَابُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ هَلَكْتَ دَوْسُ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأَنْتَ بِهِمْ»^(٢).

وروى المقدسي (ت: ٦٤٣ هـ) في «الأحاديث المختارة»، في حديث طويل، منه قول النبي ﷺ: «قُمْتُ عِنْدَ الْعَقَبَةِ، فَنَادَيْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ يَنْصُرُنِي عَلَى أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي وَلَكُمْ الْجَنَّةُ؟ أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، تُفْلِحُوا، أَوْ تَنْجَحُوا، وَلَكُمْ الْجَنَّةُ، قَالَ: فَمَا بَقِيَ رَجُلٌ، وَلَا امْرَأَةٌ، وَلَا صَبِيٌّ، إِلَّا يَرْمُونَ عَلِيَّ بِالتُّرَابِ وَالْحِجَارَةِ، وَيَبْزُقُونَ فِي وَجْهِ، وَيَقُولُ: كَذَّابٌ صَابِيٌّ، قَالَ: فَعَرَضَ عَلِيٌّ عَارِضٌ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنْ كُنْتَ رَسُولَ اللَّهِ،

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٣٥٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢٩٣٧، ومسلم برقم: ٢٥٢٤.

فَقَدْ أَنْ لَكَ أَنْ تَدْعُو عَلَيْهِمْ كَمَا دَعَا نُوحٌ عَلَى قَوْمِهِ بِالْهَلَاكِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَأَنْصُرْنِي عَلَيْهِمْ أَنْ يُجِيبُونِي إِلَى طَاعَتِكَ»، فَجَاءَ الْعَبَّاسُ عَمَّهُ فَأَنْقَذَهُ مِنْهُمْ، وَطَرَدَهُمْ عَنْهُ^(١).

ورأي الإمام ابن حبان (ت: ٣٥٤ هـ) رحمه الله أن مثل هذا الدعاء لخصوص شج الوجه، فقد روى في صحيحه عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». ثم شرح ابن حبان الحديث فقال: «يَعْنِي هَذَا الدُّعَاءُ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ أُحُدٍ لَمَّا شَجَّ وَجْهَهُ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي» ذَنْبُهُمْ بِي مِنَ الشَّجِّ لَوْجْهِي، لَا أَنَّهُ دُعَاءٌ لِلْكَفَّارِ بِالْمَغْفِرَةِ، وَلَوْ دَعَا لَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ لَأَسْلَمُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَا مُحَالَةً»^(٢).

ويروى عن بعض الدعاة أنه كان يقول: «كونوا كالشجر، يرميه الناس بالحجر، فيرميهم بالثمر»^(٣).

وهذه الربانية في حياة الداعية وسلوكه أمر عظيم يغفل عنه كثير من الدعاة، فالأنهماك في الدعوة، وإحكام الأساليب والوسائل قد يُنسى بعض الجوانب الربانية والعبادية، من الالتجاء إلى الله تعالى، والدعاء والصلاة، وغيرها.

كُنْ كَالْتَّخِيلِ إِلَى الْعُلَيَاءِ مُرْتَفِعًا بِالطُّوبِ يُرْمَى فَيَرْمِي أَطْيَبَ الثَّمَرِ



(١) أخرجه المقدسي في «المختارة» برقم: ٣٣٧٣، وإسناد الحديث مقبول في السيرة.

(٢) أخرجه ابن حبان برقم: ٩٧٣، وإسناد الحديث حسن.

(٣) «الاستيعاب في حياة الدعوة والداعية» لفتحي يكن ص ٣٨.

القاعدة الثالثة

٣. اسأل الله تعالى الإخلاص والقبول
قبل الدعوة وبعد كل نجاح دعوي

كان أحد المخلصين في الدعوة ممن اهتدى على يده الجم الغفير يبكي بكاء الصبي، ويخاف على نفسه أن تكون قد شاب نيته دخنُ حرف مسار الإخلاص عن الوصول إلى الله تعالى.

نقل الحافظ الذهبي (ت: ٧٤٨ هـ) عن هشام الدستوائي رحمهما الله قوله: «وَاللَّهِ مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ: إِنِّي ذَهَبْتُ يَوْمًا قَطُّ أَطْلُبُ الْحَدِيثَ أُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

ثم عقب الذهبي بقوله: «وَاللَّهِ وَلَا أَنَا، فَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ لِلَّهِ، فَنَبُلُوا، وَصَارُوا أَيْمَةً يَقْتَدِي بِهِمْ، وَطَلَبَهُ قَوْمٌ مِنْهُمْ أَوَّلًا لَا لِلَّهِ، وَحَصَلُوهُ، ثُمَّ اسْتَفَاقُوا، وَحَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ، فَجَرَّهُمُ الْعِلْمُ إِلَى الْإِخْلَاصِ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَغَيْرُهُ: طَلَبْنَا هَذَا الْعِلْمَ، وَمَا لَنَا فِيهِ كِبِيرُ نِيَّةٍ، ثُمَّ رَزَقَ اللَّهُ النَّيَّةَ بَعْدُ».

وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: طَلَبْنَا هَذَا الْعِلْمَ لِغَيْرِ اللَّهِ، فَأَبَى أَنْ يَكُونَ إِلَّا لِلَّهِ، فَهَذَا أَيْضًا حَسَنٌ، ثُمَّ نَشَرُوهُ بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ.

وَقَوْمٌ طَلَبُوهُ بِنِيَّةٍ فَاسِدَةٍ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَلِيُثْنَى عَلَيْهِمْ، فَلَهُمْ مَا نَوَوْا، وَقَالَ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ غَزَا يَنْوِي عَقَالًا، فَلَهُ مَا نَوَى»^(١). وَتَرَى هَذَا الضَّرْبَ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَا لَهُمْ وَقَعٌ فِي الثُّمُوسِ، وَلَا لِعِلْمِهِمْ كَبِيرٌ نَتِيجَةٌ مِنَ الْعَمَلِ، وَإِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى.

وَقَوْمٌ نَالُوا الْعِلْمَ، وَوُلُّوا بِهِ الْمَنَاصِبَ، فَظَلَمُوا، وَتَرَكُوا التَّقْيِيدَ بِالْعِلْمِ، وَرَكِبُوا الْكِبَائِرَ وَالْفَوَاحِشَ، فَتَبَّ لَهُمْ، فَمَا هَؤُلَاءِ بِعُلَمَاءَ!

وَبَعْضُهُمْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ فِي عِلْمِهِ، بَلْ رَكِبَ الْحِيلَ، وَأَفْتَى بِالرُّخْصِ، وَرَوَى الشَّاذَّ مِنَ الْأَخْبَارِ.

وَبَعْضُهُمْ اجْتَرَأَ عَلَى اللَّهِ، وَوَضَعَ الْأَحَادِيثَ، فَهَتَكَهُ اللَّهُ، وَذَهَبَ عِلْمُهُ، وَصَارَ زَادُهُ إِلَى النَّارِ.

وَهَؤُلَاءِ الْأَقْسَامُ كُلُّهُمْ رَوَوْا مِنَ الْعِلْمِ شَيْئًا كَبِيرًا، وَتَصَلَّلُوا مِنْهُ فِي الْجُمْلَةِ، فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ بَانَ نَفْسُهُمْ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

وَتَلَاهُمْ قَوْمٌ انْتَمَوْا إِلَى الْعِلْمِ فِي الظَّاهِرِ، وَلَمْ يُتَقِنُوا مِنْهُ سِوَى نَزْرِ يَسِيرٍ، أَوْهَمُوا بِهِ أَنَّهُمْ عُلَمَاءُ فَضْلَاءُ، وَلَمْ يَدْرِ فِي أَذْهَانِهِمْ قَطُّ أَنَّهُمْ يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّهُمْ مَا رَأَوْا شَيْخًا يُقْتَدَى بِهِ فِي الْعِلْمِ، فَصَارُوا هَمَجًا رَعَاةًا، غَايَةُ الْمُدَرِّسِ مِنْهُمْ أَنْ يُحْصَلَ كُتُبًا مُثَمَّنَةً، يَخْزِنُهَا، وَيَنْظُرُ فِيهَا يَوْمًا مَّا، فَيُصَحِّفُ مَا يُورَدُ، وَلَا يُقَرِّرُهُ»^(٢).

(١) لفظ الحديث: «مَنْ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَا يَنْوِي فِي غَزَاتِهِ إِلَّا عَقَالًا، فَلَهُ مَا نَوَى» وقد أخرجه أحمد في «المسند» برقم: ٢٢٦٩٢، وابن حبان في «صحيحه» برقم: ٤٦٣٨، وحكم محققو المسند على الحديث أنه حسن لغيره.

(٢) «سير أعلام النبلاء» ٧: ١٥٢ - ١٥٣.

هذه القاعدة تختلف عن التي قبلها تماماً، فالأنفة تتعلق بصلة الداعي بربه ودعائه لمن يدعوه، أما هذه فإنها تتعلق بدعاء الداعية لنفسه أن يرزقه الله تعالى الإخلاص والقبول، وهذا من الأهمية بمكان عال، لأنه قد ينجح المرء في هداية غيره، ويدخل على قلبه بعض العوارض التي تصرفه عن الإخلاص، فتكون النتيجة خسران الآخرة والعياذ بالله تعالى، وقد قالت أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ، قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُزِلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»^(١). وكان بعض الصالحين رحمهم الله يدعوا: اللَّهُمَّ لا تجعلني جسراً يعبر الناس علي إلى الجنة ثم يلتقي بي في نار جهنم.

وقال ابن رجب (ت: ٧٩٥ هـ) رحمه الله: «يا ضيعة العمر إن نجا السامع وهلك المسموع، يا خيبة المسعى إن وصل التابع وانقطع المتبوع»^(٢).

أما سؤال الله تعالى الإخلاص قبل العمل الدعوي، فلأنه قد يموت الداعي قبل إتمام مهمته الدعوية، وقبل هداية من يدعوه، فعندها يكتب الله ثوابه كأنه أتم العمل، وتصحيح النية والإخلاص فيها أمر عظيم، بل غاية في الأهمية.

ولكن لَفَتَ الانتباه إلى ما بعد النجاح الدعوي أهم وطريقه أَوْعَر، لأن الشخص قد ينسب النجاح لنفسه عند تمامه، ويقول: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]. وينسى أن التوفيق والسداد بيد الله، وأشد

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٥٠٩٤، والترمذي برقم: ٣٤٢٧، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) «لطائف المعارف» ص ٧٨.

المراة أن يكون الداعي سبباً لهداية الناس، وتكون دعوته سبباً لغواية نفسه، نعم؛ قد لا تكون غوايته لشرب خمر ولا قرب من الزنى أو اقتراف لكبيرة السرقة، ولكنها أعظم منها؛ وهو العظمة في عين نفسه، وقد ثبت في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يَنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ»^(١).

فورك لم ينجح في الدعوة إلا من تحقق بالإخلاص قبل الدعوة، وعزا الخير لربه عقب نجاح الدعوة، شعاره: اللَّهُمَّ هذا من توفيقك، والخير كله من عطائك.



(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٦٢٠.

القاعدة الرابعة

٤. ادرس فن الدعوة إلى الله وإن لم تكن متخصصاً بالعلم الشرعي

الخطاب الذي وجهه النبي ﷺ في الأمر بالدعوة إنما وجهه للأمة عامة، لا للعلماء خاصة، فقد قال النبي ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنِّي بِإِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَنِّي مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

قد يتوهم قارئ الحديث أنه لا حُمة بين فقرات الحديث الثلاث، والواقع أنها موثوقة متماسكة، فالتبليغ يدعمه الاستشهاد بقصص الأمم السالفة، لكن الخوف الشديد أن تدعو إلى الله على غير بصيرة، فتنسب للنبي ﷺ ما لم يقله بدعوى حب التبليغ.

لذلك يقال للناس: اعمل في الدعوة قدر استطاعتك، ولكن فيما تحسنه فقط، لأن الدعوة إلى الله ليست نافلة، بل هي واجبة، بيد أنه لا يفهم من هذا أن الواجب على كل فرد من المسلمين التفرغ للدعوة، أو يفهم أن المفروض هو العمل بكل زوايا الدعوة، بل المتعين أن يسهم كل الناس بضابطين:

الأول: على قدر الاستطاعة

الثاني: فيما لديه العلم الصحيح به.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٦١.

يتضح للمسلم من خلال الحديث الآنف أنه عام لكل المسلمين، بحيث الأمر النبوي شمل الكل بقوله: «**بَلِّغُوا**»، وليعلم المكلف شرف هذا التكليف أتاه التحديد بقوله: «**عَنِّي**» فالنقل هو عن رسول الله ﷺ، وكفى المسلم شرفاً أن يكون رسولاً عن رسول الله ﷺ، لكن الرحمة النبوية لم تترك الأمر على تمامه بدون قيد، إذ يفهم منه المشقة، وأن الأمة بأكملها ستتفرغ للدعوة، فقال لهم مخففاً: «**وَلَوْ آيَةً**».

ولقد صدق من أوجز الشرح فقال: «**بَلِّغُوا**»: تكليف، «**عَنِّي**»: تشريف، «**وَلَوْ آيَةً**»: تخفيف.

وقد بوب البخاري (ت: ٢٥٦ هـ) رحمه الله في كتابه «خلق أفعال العباد»: «باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وروى تحت هذا الباب قول النبي ﷺ: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ» من رواية ثمانية من الصحابة^(١).

في هذا العصر دعاة تألقوا في فضاء الدعوة، وليس تخصصهم الأصل في العلم الشرعي، كالداعية الشيخ أحمد ديدات (ت: ١٤٢٦ هـ) رحمه الله، وغيره من إخوانه، أجل وربي، لولا أن هذا الرجل قد فهم فقه الدعوة، وحضر في ذهنه قواعدها لما نجح في إقناع الآلاف وإدخالهم في دين الله تعالى، ولكن الرجل فقه الأمر النبوي الذي حمّله هم الإسلام من خلال الحديث الآنف، وكان قد أتقن فن التحدث لقضيته، وأخلص لها إخلاصاً باهراً، وأعطاه من وقته الحظ الأوفر، فكانت النتائج كما كتبها الله.

(١) أفدت هذا النقل الرائع من شيخنا المحدث الشيخ محمد عوامة، من كتابه: «خطوات منهجية في إثبات عدالة الصحابة» ص ٣٦، والحديث المذكور متواتر.

لو أن كل إنسان تعلم أساسيات علم الدعوة، ومارسها بالشرطين المذكورين آنفًا - العلم الصحيح، وعلى قدر الاستطاعة - لرأى المسلمون فتحًا إسلاميًا جديدًا كفتح الصحابة رضي الله عنهم.

لقد كان من أخبار العلماء الربانيين المعاصرين أنهم يعلمون طلابهم أصول الدعوة إلى الله تعالى لجميع التخصصات، فترى في تلاميذ الشيخ أصحاب الحرف والصنائع كالنجارة والحدادة والبناء، ومعهم أصحاب الدراسات المختلفة: كهندسة الزراعة، والطب، والصيدلة وغيرها، إضافة إلى ذوي التخصص الشرعي، والقاسم المشترك بين هؤلاء الطلبة أجمعين أنهم كانوا يحملون هم الدعوة إلى الله تعالى، كل على حسب طاقته فيما يحسنه من العلم.

بله قد تجد في أحيان - ولو كانت نادرة - من تخصص في العلم الشرعي وليس لديه هم دعوي، كما قال لي الأستاذ حيدر الغدير حفظه الله مرة: «كثير ممن درس التخصص هو عبء على تخصصه، وهذه آفة الجامعات التي تفرض التخصص بحسب مجموع الدرجات للطالب».

وفي الختام أذكر بقول الحبيب رضي الله عنه: «... فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمُرُ النَّعَمِ»^(١).

فما أحد من المسلمين إلا هو بحاجة إلى معرفة فن الدعوة، - وكل على قدر سعته -؛ لأن الرسول ﷺ قد حمّل تبليغ الدعوة للمسلمين كافة.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٠٩، ومسلم برقم: ٤٤٠٦.

القاعدة الخامسة

٥. الدعوة صنعة أكثر الصحابة رضي الله عنهم، بخلاف

الفقه والتحديث فإنه تخصص وهو قليل

لا تُبعد الشُّجعة إن قلت: إن الواجب على كل مسلم أن تكون الدعوة
صنعتة الدائمة، بخلاف التخصص العلمي فله أهله، وقد قال الحافظ ابن قيم
الجوزية (ت: ٧٥١ هـ) رحمه الله نقلاً عن ابن حزم: «الذين حُفِظَتْ عَنْهُمْ
الفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ مئة ونيف وثلاثون نفساً، ما بين رجل
وامرأة، وكان المكثرون منهم سبعة» ثم ذكر المتوسطين في الفتوى وهم ثلاثة
عشر، ثم قال: «والباقون منهم مُقِلُّون في الفتيا، لا يروى عن الواحد منهم إلا
المسألة والمسألان، والزيادة اليسيرة على ذلك يمكن أن يجمع من فتيا
جميعهم جزء صغير فقط بعد التقصي والبحث»^(١).

من هذه المقدمة يسع القارئ أن يأخذ صورة واضحة جلية في عدد
فقهاء الصحابة، وقُلَّ مثلها في المكثرين من الحديث منهم، أما الدعاة في
الصحابة؟ فهم بلا ريب كثيرون، بل يقال بدون تردد: إن جُلَّ الصحابة كانوا
يعملون في الدعوة، كُلُّ على قدر علمه وتفرغه.

ومثل هذه الصورة تماماً كانت في أتباعهم، وأتباع أتباعهم، وهي نفسها
في هذا اليوم.

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» ١: ١٠.

إن عدد رجال الدعوة في وقتنا الذين يشغلون الحيز الأكبر في الدعوة، أكثرهم من غير المتخصصين في علوم الشريعة، من حديث وفقه وعقيدة وغيرها، بل فيهم كثرة كثرة من أهل الاختصاص غير الشرعي، ولكنهم حملوا رسالة الإسلام دعوة وتبليغاً.

من أقرب الأمثلة في هذا الزمن الدكتور الطيب عبد الرحمن السميّط (ت: ١٤٣٤ هـ) رحمه الله، الداعية الأكبر الكويتي، الذي أسلم على يديه من لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، هو ليس من ذوي التخصص الشرعي الدقيق من حديث أو فقه أو سيرة أو تاريخ، ولكنه من أكابر الحاملين لرسالة الإسلام، لقد استطاع أن يوصل الإسلام إلى عشرات الآلاف الذين لم يصل إليهم أحد من ذوي التخصص.

ولا أعرف أحداً يستثنى من الدعوة بعد الأنبياء، مهما علا كعبه، وارتفع قدره، فعلى سبيل المثال، تبذل الدعوة:

(١) للكافر المشرك حتى يوحد الله.

(٢) والملحد ليؤمن

(٣) والمؤمن ليخلص

(٤) والعاصي ليطيع

(٥) والغافل ليتذكر

(٦) والصالح ليكون مصلحاً

(٧) والذاكر ليكون مُدَّكَّرًا^(١).

فإن أكرمك الله أن تكون من القليل الذين أكرموا بالتخصص العلمي إضافة إلى الدعوة فمرحى ثم مرحى، وإن لم تكن فلا أقل من أن تكون من الكثير، الذين حملوا همَّ الدعوة، وسارعوا إلى الله ينقذون الناس، ويمشون في صنعة الأنبياء.



(١) أفادني هذه الفائدة شيخنا العلامة الشيخ جابر مصري حفظه الله، ولا أعرف عزوها فالله يجزي قائلها خيرًا.

القاعدة السادسة

٦. تحقق من لفظ الآية وتفسيرها عند

الاستشهاد بها

من القوة في طرح الدعوة أن يستشهد بالآيات القرآنية، لكن من الطامات الكبرى الاستشهاد بالآيات بالمعنى، أو إقحام أمور ليست من القرآن ونسبتها إلى الله تعالى، وهناك ألفاظ يستشهد بها بعض الناس وليست من القرآن الكريم بشيء، كقولهم: وجعلنا لكل شيء سبباً فأتبع سبباً، وقولهم: الأقربون أولى بالمعروف. وهذه ليست بآيات ولا يجوز إقحام القول ونسبته إلى الله تعالى دون تحقق تام، وهذا وإن كان على ندرية يسيرة ولكنه موجود حاصل.

ثم تأتي مشكلة أخرى هي أكثر استعمالاً، ألا وهي الاستشهاد بالآيات في غير موضعها، وإنزال الواقعة على الآية دون الصلة الصحيحة بينهما، كأن يأتي بالآية الكريمة ويستشهد بها في غير موضعها، موهماً السامع أن الآية تنطبق على حالته تماماً.

سخر رجل من آخر، فأراد أن يَرُدَّعَهُ فقرأ عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

أعوذ بالله من تحريف الكلم عن مواضعه، وهذا المُسْتَهْزِئُ به ليس من آيات الله ولا من رسله، ولو أنه قرأ عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا

﴿مَنْهَنَ﴾ [الحجرات: ١١]. لكان صادقاً موفّقاً في الاستدلال، أما أن يلبّس على السامع أن الآية شاهد صريح في نقض عمله فهي - وايم الله - جريمة.

حث شخص أخاً له على الصلاة وقال له: قم فصل، فقال له: سأصلي بعد قليل، فتعوذ بالله وتلا عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

ولا ريب أن هذا الاستشهاد بالآية في هذا الموضع استشهاد فاسد عاطل، وإنزال للآية في غير ما أريدت له، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]. وما دام الرجل يصلي الصلاة في وقتها المؤقت لها فهو على منهج الله الذي رسمه له، أين هو من المنافقين الذين يخادعون الله، ويصلون وهم كسالى، يراؤون الناس، ولا يذكرون الله إلا قليلاً!! شتان ما بينهما.

نعم لقد أخطأ من استدل في الآية بغير موضعها خطأً بليغاً، وأتى بعظيم الذنوب وربما أثر سلباً في دعوة أخيه، لكنه ليس على خطورة من أمره يصل إلى حد الكفر والعياذ بالله، أما إذا كان على سبيل التلاعب - وما أظن هذا في الدعاة - فقد يصل الأمر إلى الكفر الصريح.

حدثني مؤذن مسجد في إحدى دول الخليج، قال: أغلقنا باب المسجد بعد صلاة العشاء وبدأنا نلعب بالكرة في حرم المسجد، إذا برجل باكستاني يدخل علينا فجأة، - وكثير من الأعاجم يعظمون بيوت الله أكثر من العرب - عَجِبَ هذا الأعجمي من لعب المؤذن وأصدقائه في هذا المكان المقدس،

وأنكر عليهم صنيعهم هذا بصوت تعلوه نبرة الغيرة المزوجة بالاعتراض والغضب، مع خليط بين الكلام العربي المبعثر وغير العربي، فأجابه أحد اللاعبين بالنبرة نفسها وقوة مخرجها: ألا تدري ما قال الله في كتابه الكريم؟ لقد قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. عندها أطرق الباكستاني في الأرض طويلاً، وظن أن الآية نص صريح على جواز اللعب في المسجد بالكرة.

ولا إخال^(١) هذا الفعل من صغائر الأمور، ولا أحسبه هيناً، ولكني أعتقد أنه عند الله عظيم.

ووالله إن السكوت عن الدعوة لأهون عند الله من استعمال الآية في غير موضعها، أو تفسيرها بغير ما هي عليه.



(١) يقال بفتح الهمزة وكسرها، وقد قال في لسان العرب، مادة: «خيل»: «أي ما أظنك؛ وتقول في مُسْتَقْبَلِهِ: إِخَالٌ - يَكْسِرُ الألف - وهو الأفصح، وَيَبْنُو أسد يقولون أَخَالٌ - بالفتح - وهو القياس، والكسر أكثر استعمالاً». ثم نقل عن «التهذيب» أنه قال: «تقول خِلْتُهُ زَيْدًا، إِخَالُهُ وَأَخَالُهُ خَيْلَانًا».

القاعدة السابعة

٧. تحقق من ثبوت الأحاديث قبل الاستدلال بها

يبحث كثير من الشباب اليوم عن سبب التعارض بين الواقع وما سمعوه من أحاديث عن النبي ﷺ، ولكن الحل يظهر في عدد كبير منها عند أول نقطة بحث يتفاجأ بها الباحث، حيث يجد أن الحديث غير ثابت عن رسول الله ﷺ، وأما الثابت فهو قليل وله جواب.

إن ما تقدم التنبيه عليه آنفًا في الآيات القرآنية ينطبق تمامًا على الأحاديث النبوية، بل هي في الأحاديث أكثر وأوفر، حيث إن الأحاديث لم تكن كالقرآن في درجة الثبوت، فيتعين عند الاستشهاد بها التحقق من ثبوتها أولاً.

كم وكم أبكى الخطباء والوعاظ ناسًا تبين للسامع فيما بعد أنهم بكوا على أحاديث مكذوبة؟

حدثني شيخنا الشيخ محمد عوامه حفظه الله، أنه حضر خطبة الجمعة عند شيخه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت: ١٤١٧ هـ) رحمه الله، خرج الشيخ إلى المنبر ومعه كتاب الإسراء والمعراج المنسوب لابن عباس، وهو كتاب مكذوب من أوله إلى آخره، وظاهر القصة فاقع يصرخ على نفسه بالكذب والافتراء، قال: جعل الشيخ عبد الفتاح ينبه على أكاذيب الكتاب ويحذر منه، ويقرأ كل عبارة منه ويرد عليها، ويسأل الناس الحاضرين رأيهم كذبًا كهذا

الكذب؟ رأيتم افتراء على الله أشنع من هذا الافتراء؟ وكلما قرأ عبارة كذبها بلون غير لون أختها التي قبلها، حتى أشبع الموقف تكذيباً، قال شيخنا عوامة: وكنت جالساً أسمع وأمامي رجل من العامة يبكي بكاء مُراً على ما يسمع، ويتأثر بالحديث المكذوب تأثراً عجبياً.

الأكاذيب تشد أنظار العامة وتؤثر فيهم، لكن الذي يزيد الطين بلة أنك قد تنبه بعض الناس على أحاديث مكذوبة فلا يرى قبلاً ولا عيباً في الأمر، بل قد يراه أثراً حسناً إيجابياً، كمن يدعي أن المهم هو تأثر السامع وموعظته ورجوعه إلى الله تعالى، أقول: لا يمكن للمزيف أن يبني ويستمر، فالكذب على رسول الله ﷺ أصلاً أو نقلاً أو ترويحاً كله شؤم وضلال، ولا يغرنك اتعاظ بعض الناس مؤقتاً، فلا بد أن تظهر الردة أو يظهر الأثر السلبي، ولا سيما عند مناقضة العقل والفطرة.

وقد أوضح الله تعالى أن كل كلام ليس من عند الله فيه اختلاف كثير، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُفْقَرَّأَنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وكم سببت الأحاديث المكذوبة الزعزعة في نفوس الناس، وأثار مكذوب الأخبار الشك في قلب الجاهل، لكن هيبة الدين منعه من التصريح بالسؤال، وبقيت الشبهة في النفس تسرح ولا تهدأ.

وكثيراً ما أحدث الحديث المكذوب والمعلومة المزيفة ردة عكسية سريعة لدى السامع، ثم نكسة أسوأ من المرض الأصلي، وما سبب هذا إلا لأنه بُني على باطل، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَتَسَسَ بِئِكَنتُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَسَ بِئِكَنتُهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ

جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿التوبة: ١٠٩﴾، وقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] فالدعوة إلى الله تعالى لا تكون إلا على بصيرة.

وانتهز الفرصة هنا لبيان فائدة علمية ذهبية نبهني إليها شيخي الجليل الشيخ محمد عوامه - حفظه الله بخير وعافية -، وهي في التحذير من خطورة تحبيب الناس برسول الله ﷺ من خلال الأحاديث الواهية والمكذوبة، وضرب لي مثلاً على هذا، لو أن عامياً حضر خطبة رجل من أهل العلم، وقد حَبَّبه هذا الخطيب برسول الله ﷺ من خلال أحاديث عدة، وشحنه شحنة إيمانية عالية في حب رسول الله ﷺ، ثم خرج هذا الرجل غير العالم وذكر أمام عالم آخر الأحاديث التي أثرت في حبه لرسول الله ﷺ، ثم تبين أن الأحاديث بين باطل وواه ومنكر وساقط؟؟ أفلا ترى أن الشحنة تفرغ، وربما يصاب بنكسة أشد خطورة من حاله قبل أن يسمع الخطيب الأول؟ ويُقال عندها: ليته لم يسمع تلك الأحاديث أصلاً؟

ولقد كان تحذير النبي ﷺ شديداً لمن حدث عنه بحديث يُرى أنه كذب، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»^(١).



(١) أخرجه مسلم في «مقدمة الصحيح»، بدون رقم.

القاعدة الثامنة

٨. تحقق من صلاحية النص للحادثة
قبل الاستدلال به

إن العوامل للاستشهاد بالأحاديث النبوية لكثيرة، فما صلح في زمان قد لا يصلح لآخر، وما صلح لحال قد يكون خطأ في غيره، وما كان في قوم مخاطبين لا يكون بحال في غيرهم.

الدعوة ليست كالْعُلْبِ الجاهزة، وقد كذب على النبي ﷺ من أخذ كلمة منه ووضعها في غير موضعها، ثم ادعى أن النبي ﷺ قد قالها.

يحكي الشيخ علي الطنطاوي (ت: ١٤٢٠ هـ) رحمه الله عن أحد أصدقائه من سنه، - وأنا سمعتها من سبطه الأستاذ عمرو حتاحت، وسمعتها من الأستاذ القدير حيدر الغدير حفظهما الله - أن هذا الرجل أصيب بجنون في زاوية من زوايا عقله، وسيطرت عليه قطعة من الدعوة لم تعد تنفك عنه، فكان يقف عند إشارات المرور، ويغتنم لحظات إغلاق الإشارة ليطلق الزجاج على السائق، فيفتح السائق ويظنه من السؤال، يطلب الدريهمات، إذا به يفاجئه بسؤال: أين الله؟ ومرة سأل رجلاً مصرياً هذا السؤال، فأجابه هذا الرجل على الفطرة والسرعة والبداهة بلهجته المصرية: أنت تبحث عن، ما الذي ضاع منك؟

دخلت إلى امتحان الأئمة والخطباء في بعض الدول العربية فسألني أحد

أعضاء لجنة الاختبار: أين الله^(١)؟

قد اعترضت على مثل هذا فكان الجواب: ألم يسأله رسول الله ﷺ للجارية؟^(٢)

أقول: على فرض صحة الحديث بهذا اللفظ^(٣)، لمن سأله النبي ﷺ؟ سيكون الجواب: إنما سأله لمن لا يعرف أهي مسلمة أو كافرة، فأراد أن يمتحن حقيقتها ويخبر واقعها، فهل يجوز استعمال هذا مع من تقدم لاختبار الأئمة والخطباء؟

رد علي صديقي المتحمس: أنت بهذا تنكر أسلوبًا نبويًا.

قلت: خبثٌ وخسرت إن فعلت هذا أو خطر ببالي نحوه، ومن ينكر على رسول الله ﷺ أسلوبه؟

(١) لست في عرض هذا الحديث أقرر مذهب جماعة على أخرى، إنما موضوعي الوحيد هو عرض الدعوة، وهل استعمال هذا السؤال لهذا الشخص صحيح أو لا؟ أما عرض المسألة من حيث المذاهب العقدية، فأهل السنة والجماعة على ثلاثة مذاهب، كلهم ناجون وعلى خير، ولا مزايدة لمذهب على آخر، وهم السادة الأشاعرة، والماتريدية، وأهل الحديث، ومن الضيق الدعوي جعل الداعية مدرسته هي الناجية، وغيرها من الفرق الضالة، ومثل هذا الإنسان لم يشمّ - في وجهة نظري - رائحة حقيقة الدعوة الحق، ولم يقترب من منهاج الصحابة الكرام.

(٢) حديث الجارية هو حديث معاوية بن الحكم، وهو بطوله ص ٩٧.

(٣) الحديث بأصله صحيح، ولكنه مختلف فيه، أهو بهذا اللفظ، أم بلفظ آخر: وقد صحح شيخنا المحدث الشيخ صلاح الدين الإدلي هذا الحديث في رسالة خاصة سماها: «حديث سؤال الجارية بلفظ «أين الله؟» رواية ودراية» ولكن تصحيحه له بلفظ: «من ربك»، وليس بلفظ: «أين الله».

يا صديقي: أقول لك بكل صراحة، التزم الحالة التي استعملها رسول الله ﷺ، فلقد استعمل هذا السؤال مع الجارية التي لا يعرف أمسلمة هي أم كافرة.

سأضرب لك مثالاً توضيحياً:

لقد سأل النبي ﷺ ماعزًا بسؤال صريح: أزنيت؟

هل يجوز لي أن أستعمل هذا اللفظ مع أناس جاؤوا لحضور محاضرتي؟

قال: لا؟ قلت: إذن حسب تصنيفك أنت تنكر أسلوبًا نبويًا؟

قال: الحالة اختلفت بين الحاضر لمحاضرتك وبين ماعز، ثم قال: فلو جاء الزاني يستفتيك جاز لك السؤال.

قلت: وأيضًا هذا لا يجوز لي سؤاله؟ تعجب وقال: ولم؟

قلت: إنما سأله إياه رسول الله ﷺ بحكم قضائه، أي بصفته قاضيًا، وقد شكى إليه ماعز، فردّه، ثم جاءه من الطرف الثاني، فغير وجهه عنه، ثم المرة الثالثة، وجاء بشخص يستنكه فمه، أي: يشم رائحة فمه إن كان سكران، وأرسل إلى قومه يسألهم: أينكرون من عقله شيئًا؟^(١) ولم يكن بين يدي رسول الله ﷺ - وهو القاضي - إذ رفع إليه الأمر إلا أن يطبق شرع الله، وهو المشرع بأنه لا يمكن للقاضي والإمام إذا رفعت إليه الشكوى إلا أن يطبق حدود الله.

(١) الحديث متفق عليه، وانظر رواية الإمام مسلم من حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صحيحه برقم: ١٦٩٥.

بعد كل هذا سأله النبي ﷺ هذا السؤال، أفحق لي وأنا مستفتى أن أسأل السائل؟

لا والله، لأن جاءني يستفتيني وصيغة سؤاله تحمل الزنى وتحتمل مقدماته فقط، فإنني أعطيه الجواب لمن وصل حد الزنى، ولمن لم يبلغه.

حدثني أخ من الدعاة، قال: جرى حديث تعدد الزوجات مع رجل كالحجر الأصم، وهو يدعي فهم الكتاب والسنة، وحسن الاستشهاد بهما، فسرعان ما طرح سؤالاً يدل على سطحية قاتلة، قال: أترضاه لأختك؟ أترضاه لعمتك؟ يعني: هل ترضى أن يتزوج صهرك زوجة ثانية مع أختك؟ ومثلها العمة، مسكين هذا من يدعي أنه يقتبس اللفظ النبوي، وهو لفظ جاء الحوار فيه من النبي عليه الصلاة والسلام لرجل يستأذن بالزنا، فما وجه استعماله ها هنا في موضوع الزوجة الثانية.

صعد أحد الغلاة الجفاة الجهال إلى منبر الجمعة وخاطب المصلين قائلاً: قد جئناكم بالذبح؟ ثم ادعى أن رسول الله ﷺ هو مَنْ قالها.

قبح الله هذا الخطيب ما أسقم فهمه! أقالها رسول الله للمصلين؟ أسب بها النبي الرحيم ﷺ رواد المساجد ومن اعتادوا شهود الجمعة؟ لا بد من وقفة عند نص الحديث ليعلم سبب ورود الحديث، والفرق بين الفئة التي خاطبها النبي ﷺ، وبين من خاطبهم الخطب لا الخطيب، ورحم الله من وصف مثل هذا الخطيب فقال:

خَطَبْتُ فَكُنْتُ خَطْبًا لَا خَطِيبًا أَضِيفُ إِلَى مَصَائِبِنَا الْعِظَامِ

أما الحديث فقد حكى الصحابي الذي رأى قريشاً تسيء للنبي ﷺ، فقال:

قَدْ حَضَرْتُهُمْ وَقَدْ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ فِي الْحَجْرِ، فَذَكَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَقَّهَ أَحْلَامَنَا، وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، أَوْ كَمَا قَالُوا، فَبَيْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، فَمَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ، فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ الْقَوْلِ، قَالَ: وَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى ﷺ، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمْ الثَّانِيَةَ غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى ﷺ، فَمَرَّ بِهِمْ الثَّالِثَةَ، غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، ثُمَّ قَالَ: «أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَّا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ». قَالَ: فَأَخَذَتِ الْقَوْمُ كَلِمَتَهُ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا لَكَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَقَعٌ، حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَطْأَةً قَبْلَ ذَلِكَ يَتَوَقَّاهُ بِأَحْسَنِ مَا يُجِيبُ مِنَ الْقَوْلِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: انصَرِفْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، انصَرِفْ رَاشِدًا، فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ جَهُولًا. فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ اجْتَمَعُوا فِي الْحَجْرِ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ، وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ، حَتَّى إِذَا بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرْكُمُوهُ، وَبَيْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَوُتِبُوا إِلَيْهِ وَثَبَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَأَحَاطُوا بِهِ، يَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا - لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُمْ عَنْهُ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ؟ قَالَ: «نَعَمْ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ». قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ، وَقَالَ: وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَهُ يَقُولُ وَهُوَ يَبْكِي: ﴿أَنْقُتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ﴾ [غافر: ٢٨] ثُمَّ انصَرَفُوا عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ لِأَشَدِّ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا بَلَغَتْ مِنْهُ قَطُّ^(١).

(١) الحديث أخرجه ابن حبان برقم: ٦٥٦٧، وقال محقق صحيح ابن حبان: «إسناده قوي».

ولا ضير أن يترك الداعي استدلاله بالأدلة عند عدم التحقق من صلاحية النص لما يستدل به، ولكن سحفاً لمن رمى الحادثة ورغبها على هواه أو مجرى كلامه الذي اختار، والحادثة في بُعد عما أراد، أما وسعه أن يتكلم دون دليل، فما أهون كلامي إن سقط من عين السامع، وما أضره إن جدّثه خطأ بآية أو حديث.



القاعدة التاسعة

٩. التحقق التام من صحة المعلومات
التي تدعو بها إلى الله

الكلام الذي يدعو به الداعي لا يخلو أن يكون أحد أمور ثلاثة: إما قرآن أو حديث أو معلومات، بما أن الكلام قد تقدم عن الآيات والأحاديث فهذه القاعدة خاصة بالمعلومات، سواء أكانت من كلام أحد، أو فقهاً أو عقيدة أو نحواً أو غير ذلك، لكن التحقق يجب أن يكون أكثر، والبحث يجب أن يكون أعمق في الأمور المعاصرة، كعالم مثلاً قرأ معلومة في الإعجاز العلمي ولم يتحقق منها، ثم نقلها للناس على أن الغرب اكتشف أن دخول الخلاء بالرجل اليسرى يفرغ من الجسم الطاقات السلبية، والخروج باليمنى يشحن الجسم بالطاقات الإيجابية، وأن النوم والوجه متجه للقبلة له علاقة بالقطب الجنوبي والشمالي، فربما يؤدي إلى الصرع والعمى والجنون وغير ذلك، ونسب كل هذا للغرب، وأنهم هم الذين اكتشفوا هذا الذي حض عليه الإسلام قبل مئات السنين، ولكن السؤال: أين هذا الاكتشاف عند الغرب؟؟.

ألف أناس في هذا العصر كتبوا كثيرة في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وأرى أن أصل الفكرة صحيحة ضمن نطاق ضيق صغير، وقد أسس للإعجاز هيئات خاصة، وتفرغ أناس كثيرون للبحث عن أمور الإعجاز، وبعض هذه الهيئات لها شروط معقولة لقبول ادعاء الإعجاز، وبعضها

متساهل يهمله لفت أنظار الناس، حتى تبين للشباب المعاصر أن في تلك المكتشفات كثيرًا من الأكاذيب، وتحميل النص ما لا يحتمل.

حدثني شيخنا الجليل الشيخ صلاح الدين الإدلي حفظه الله - قبل نحو عشرين سنة - قائلاً: كنت قبل أيام قليلة أشاهد جهاز الرائي - التلفاز - وشخص من الأطباء يتكلم عن اكتشاف علم الجينات، وفي كلامه أعاجيب يتعين الوقوف عندها في علم الجينات، وكيف يمكن التحكم بلون الجنين ونوعه وما إلى ذلك، ثم جاءت مداخلة لعالم شرعي، فلما دخل قال لهم: إن نبينا ﷺ قد تكلم عن علم الجينات منذ أقدم العصور، عندما قال: «مَاءُ الرَّجُلِ أبيضُ ومَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مِني الرَّجُلِ مِني الْمَرْأَةِ أَذْكَرَا يَأْذِنُ اللَّهُ، وَإِذَا عَلَا مِني الْمَرْأَةُ مِني الرَّجُلِ آثَا يَأْذِنُ اللَّهُ»^(١).

أقول: ما أبعد كلام أهل الطب عن هذا الحديث؟ أنريد أن يكذب الله ورسوله؟ أم يعجبنا أن يسخر الناس من عقولنا؟ لا وربي، لقد صدق الله ورسوله، ولكن بعض الجهلة قد حمل الآيات والأحاديث ما لا تتحمل، وعندما سمعها بعض الناس لم يميزوا أهو خطأ من الناقل وفهمه، أم هو خطأ من القائل!

وقد رسم الله للمسلمين سبيل التحقق من المعلومات فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. كما ثبت في صحيح السنة النهي عن النقل

(١) أخرجه مسلم برقم: ٣١٥.

دون تثبت، قال عليه الصلاة والسلام: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»^(١).

فهب أن مسلمًا متخصصًا في الغرب سمع هذا الكلام، فأی نظرة للدعاة ستكون نظرتة؟

أما الذين أصيبوا بجنون شد أنظار الناس، فهم لا يتورعون عن الكذب من عند أنفسهم في سبيل الوصول إلى هدفهم، وتراهم يَتَقَمَّمُونَ كُلَّ شاذ من المسائل ومكذوب من الأخبار إذا توافر فيه شرط واحد ألا وهو الإغراب!

فإتقان المسألة التي تريد طرحها شرط أساس، والعلم قبل الدعوة، والفقه قبل السيادة والتصدر والإفتاء لا يُستغنى عنها، وكم وكما دعا لدين الله غيور جاهل فكانت النتيجة أن أبعد المخاطب عن الدعوة بدلًا من تحصيل هدايته، فلذلك قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) رحمه الله: «أما الوعظ، فلست أرى نفسي أهلاً له، لأن الوعظ زكاة نصابها الاتعاظ، ومن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة، وفاقد النور كيف يستنير به غيره، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج»^(٢).

يقول سيدنا عمر (ت: ٢٣ هـ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوِّدُوا»^(٣) وعندما أورد البخاري (ت: ٢٥٦ هـ) هذا القول لسيدنا عمر أتبعه بقوله:

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه برقم: ٥.

(٢) «الرسالة الوعظية» مقدمتها في الأسطر الأولى منها.

(٣) علقه البخاري في «صحيحه» بصيغة الجزم عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قوله، كتاب العلم، قوله باب الاعتباط في العلم والحكمة، ١: ٢٥، ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» برقم: (٢٦٦٤٠)، وفي تعليق شيخنا الشيخ محمد عوامة على مصنف ابن أبي شيبة فوائد إسنادية.

«وبعد أن تسودوا»، قال ابن حجر (ت: ٨٥٢ هـ) رحمه الله: «خشية أن يفهم أحد من ذلك أن السيادة مانعة من التفقه، وإنما أراد عمر أنها قد تكون سبباً للمنع؛ لأن الرئيس قد يمنعه الكبر والاحتشام أن يجلس مجلس المتعلمين»^(١).

وقد بوب الإمام البخاري (ت: ٢٥٦ هـ) رحمه الله في كتاب العلم بقول: «بَابُ: الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾» [محمد: ١٩] فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ^(٢).



(١) «فتح الباري» ١: ١٦٦.

(٢) «صحيح الإمام البخاري» ١: ٢٤.

القاعدة العاشرة

١٠. الدعوة الصحيحة لا تكون إلا

على بصيرة

رجل دعا ولده البالغ من العمر أحد عشر عامًا للصلاة فلم يستجب، فانهال عليه بالضرب ظانًا أن الشارع ﷺ أمره بهذا، فكبر الولد وهو كاره للصلاة مبغض للدين، أرأيت الدعوة على غير بصيرة؟!

لقد جهل هذا الرجل أن النبي ﷺ أجاز الضرب للأبناء من أجل الصلاة في حالة واحدة مخصوصة، وهي لمن أمر ولده بالصلاة في سبع^(١)، واستمر على هذه الحال إلى العشر، من غير قطع ولا ملل، ومن المسلم به لهذا الأب أو الولي الأمر بالصلاة أن يقوم أمام ولده مصليًا، وهو له سابق وإمام، وذلك على طول مدة ٣ سنوات $360 \times$ يومًا $5 \times$ صلوات = ٥٤٠٠ مرة يأمر ولده بالصلاة قولًا وعملاً وتربية وسلوكًا.

أما أن يهمل الوالد متابعة ولده، ولا يأمره بالصلاة إلا غيبًا، ولا يصلي أمامه إلا نادرًا، وقد تفوت الصلاة الأب أحيانًا أمام ولده، ثم يتحمس الأب فجأة ليضرب ولده؟ فهذا ليس من الدين في شيء، إنما هو تزوير وتشويه لسمعة الدين، ولا يشمل إذن رسول الله ﷺ بالضرب للأبناء لمن لم يسلك هذا

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ، وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ». انظر: «مسند أحمد» برقم: ٦٧٥٦، «سنن أبي داود» برقم: ٤٩٥، والحديث حسن.

الترج النبوي الرائع على مدى هذه السنين، بهذا العدد.

والبصيرة كلمة عامة في الدعوة، وقاعدة تشمل فقرًا كثيرة: فمن البصيرة تحري الأسلوب الحسن الملائم، وتنويع الأساليب، والموعظة الحسنة، والحكمة في الطرح، والموازنة فيه، والتوازن بين الترغيب والترهيب، وبين اللين والشدّة، وبين ثواب الدنيا والآخرة، وبين العقاب العاجل والآجل، كما تشمل أخلاق الداعي، وكمية الجرعات الدعوية التي تعطى للناس، ومادة الدعوة من أخلاق وعقيدة وفقه ومعاملات، وما هي الفتوى الأصلح للبلد، والزمان، والمكان، وسن المدعو، ودرجة ثقافته، وحاله الراهن، بحيث يختلف خطابه بين من يريد الهمّ بالمعصية، وبين من ندم على ما فات، وبين سجين قابع في الغياهب، وجالس يتخير بين أشهى المطعومات، وبين كبير طاعن يحسب حساب السنتمتر في قيامه وقعوده، وبين شاب يبحث عن الخصومة بتحرّ ليخرط نفسه فيها....

أجل؛ بين هذه الأمور وغيرها فوارق كثيرة تجب مراعاتها، وكلها تدرج تحت الآية: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

صدقوني يا كرام: أن مفهومي من هذه الآية أنك إذا لم تكن على بصيرة فتوقف عن الدعوة حتى تكون البصيرة لديك، ومن البدهي لدى العلماء الراسخين في الدعوة أن من يدعو إلى الله على غير بصيرة قد يهدم في دين الله أكثر مما يبني.

حدثني شيخنا العلامة الشيخ محمود ميرة (ت: ١٤٤١ هـ) رحمه الله قائلًا:

قام رجل من أفاضل أهل العلم عندنا في أحد أحياء حلب يبيت في الناس أن صلاة التراويح ثمانى ركعات، وأهل حلب مجمعون على الصلاة عشرين ركعة، وبدأت البلبله فى الناس تشق طريقها، وتحمس جهال لرأى هذا الشيخ الفاضل، كما انتفض آخرون للصلاة عشرين ركعة بمثل ما درجوا عليه.

ولا يصدق عاقل أن النتيجة كانت سقوط قتيل فى هذه الفوضى، ولم تنته الحكاية عند هذا الحد، فإن بين الأسطر خبراً أريد أن أوصله للقارئ الكريم، وهو أن القاتل والمقتول كلاهما لا يصلى الفرائض!!

قد يبادرنى شخص ويقول: مسألة نادرة لا يقام عليها حكم.

أقول: بل مسألة قديمة حديثة، متجددة فى كل موسم وعام، فلا يكاد يمر بنا شهر ربيع الأول إلا وتنهل رسائل الجوال بين الناس ببدعية الاحتفال بالمولد أو استحبابه، ومثلها فى شهر رمضان هل التراويح عشرون أم ثمان، وهل صيام وقيام النصف من شعبان مستحب أم بدعة، وهل صيام العشر من ذى الحجة وارد أم المطلوب مطلق العبادة، وفى كل هذا وأضرابه مناقشات رائعة بين أهل العلم والفضل ومن يعرفون حجم هذا فى الشريعة، أما أن يتولى النقاش والحماس والدفاع ونشر هذه الأمور عوام بسطاء، فهذا عكس البصيرة التى نص الله عليها بالقرآن، ويتحمل وزرها الدعاة الذين يحملون الناس وجهة واحدة، ويخيلون إليهم أن الحق فى هذا واحد لا شريك له، وأن الوجهة المقابلة وجهة مطروحة ليس لها مثقال حبة خردل من النظر.

فما أحوج الدعاة إلى استعمال المجهر فوق كلمة: «على بصيرة»، كي لا تشوه صورة الدعوة من أخطاء من يؤديها خطأ.

القاعدة الحادية عشرة

١١. كن لين العريكة في قولك، خفيف
الوطأة في عباراتك، وترفق بالمدعو ويسر
في اختيار الأحكام ما لم يكن إثماً.

صليت الجماعة في أحد مساجد إحدى الدول العربية، وعلى باب المسجد رجل ضعيف من السُّوقَة، يبيع بعض الحوائج، وهيئته رثة، وحاله يلقي على المارة درساً في الفقر والفاقة، وقف عدد من المصلين لديه ينظرون إلى بضاعته ويمشون، تشاءب الرجل مللاً وأخرج بعض الكلمات فُهِمَتْ منه بصعوبة يقول فيها: يا رسول الله! فصادفه غليظ من غلاظ القلوب فصاح به بصوت عال: قل: يا الله! ثم نظر الصائح بي فعرف في وجهي إنكار اللهجة، فسلم علي وعيناه تقول لي: ألك كلام تريد أن تقوله لي؟ فلم أنبس معه ببنت شفة.

نعم؛ والله إني لأنكر على هذا الوهين قوله، ولكنني أنكر أكثر قسوة ذاك الفظ، ولو أن ذاك المشؤوم سكت عما فاه فيه لما سكتُ، وَلَعَلَّمْتُ هذا المحب لرسول الله ﷺ أن حبيبه يريد منه أن يقول: يا رباه، وأن يخلص النداء للعزیز الجبار.

ألم يرسل الله تعالى موسى - وهو خير من صاحبي الغليظ بلا نزاع - إلى فرعون - وهو شر من هذا البائع بلا نقاش - وأمر الله موسى وأخاه هارون بلين الخطاب فقال: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٤١﴾ فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئَلَّا نَعْلَهُ،

يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿ [طه: ٤٣ - ٤٤]. وواضح لكل فطن أنه قد سبق في علم الله أن فرعون سيموت على الكفر، ولكن هذا الأمر من الله لنبيه موسى وهارون إنما هو خط منهج ليعمل به، ثم قصه الله علينا في قرآنه ليتعلم الناس منهم ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

اللين في الدعوة له ما لا تحصر من الأدلة في السنة والسيرة العملية في حياة رسول الله ﷺ، لقد روى البخاري (ت: ٢٥٦ هـ) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنْبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»^(١).

وروى الشيخان عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا»^(٢).

وروى الشيخان واللفظ لمسلم (ت: ٢٦١ هـ) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَهْ، مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ»، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ، لَا تَصْلَحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٢٠.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦٩، ومسلم برقم: ١٧٣٥.

اللَّهُ وَالصَّلَاةَ، وَقِرَاءَةَ الْقُرْآنِ»، قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ، فَشَنَّهُ عَلَيْهِ^(١).

ولكن هذا اللين إنما يكون في الأسلوب، لا في حقيقة الحكم، فمن غير المقدور لدى الداعية أن يخفف الأحكام، أو يقلل منها، أو يرضى بأنصافها.

ولقد صدق من قال: «على الداعية أن يتحلى بالعلم قبل الدعوة، واللين والحكمة في الدعوة، والصبر بعد الدعوة»^(٢).

ومن سماحة الشريعة أن عدّد الله تعالى الآراء الفقهية لكي لا تخرج الأمة، ومن العبث في دين الله أن يطالب الداعية العامة بما كان عليه خاصة السلف، نعم؛ له أن يطالب الخاصة بمجزيات ورع السلف، أما قياس العامة اليوم على خاصة السلف فهو إجحاف وأي إجحاف! ولن يستطيع العامة تطبيق ما عليه عليّة الأولين، فمقياسهم عامة السلف.

كان بعض المتنطعين في الفتوى لا يأخذ إلا بالشدائد، وما خير بين أمرين إلا اختار أعسرهما، أراد ولده أن يتزوج فمنعه من لبس خاتم الخطبة، ومن لبس ربطة العنق، ومن النشيد والأهازيج في الأفراح، والرقص واللعب بالحرابة على عادة أهل بلده في المرح، ومنع بنته من لبس الثوب الأبيض لزفافها، ومن خاتم الخطبة، ومن أي نشيد إسلامي، وأي رقص مباح، وزينة شعرها، وكل واحدة من هذه الأمور عللها بتعليل: فلبس الثوب الأبيض،

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٢١، ومسلم برقم: ٢٨٧.

(٢) أفادني هذه الفائدة شيخنا الشيخ جابر مصري، ولا أعرف من قائلها، والله يجزيهما خيرًا.

والخاتم عادات نصرانية، والرقص ليس من شأن المرأة الوقورة ولا الشاب الرصين، وفي الإسلام لا يوجد نشيد ولا أهازيج، وتزيين شعر البنت فوق رأسها كأنه أسنمة البخت المنهي عنها، وهكذا دواليك...

مهلاً يا سيدي! سأرضى منك التورع الذي ذهبت إليه، ولكن في فقهننا أقوال أخرى في كل هذه الأمور، ومن العلماء من يبيح ما حرّمته أنت، وولدك وبنتك من العامة، لأن لم تفتح لهم الباب بمقدار فإنه سيكسر رَغماً عنك، وعند ذاك هيهات أن تستطيع ضبط الأمور.

وهذا ما حصل بالحدافير، كان عرس ولده في الدرك الأسفل من المجون، وكذا عرس بنته، وكل واحد منهما يقول في قرارة نفسه: والذي لا يدرك الحرج الذي نحن فيه أمام الأصدقاء، وهذه ليلة من ليالي عمرنا لن تكرر، وسُئِرضي الوالد عقب إمضاء الليلة الصاخبة، ورأى الولدان أن من نفحات الله تخلف والدهما عن حضور الحفل.

وأختم الحديث بتنبيه مهم، وهو أن لا يفهم من الكلام السابق الميل نحو اللين فحسب، بل لا بد من التوازن، وحال الداعي يكون دائماً بين اللين والشدّة، فمن شديد الأخطاء الميل إلى إحدى الصفتين وترك الأخرى بالكلية، ولقد أخطأ من وقف عند قول السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «مَا خَيْرَ رَسُولٍ لِلَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا» أجل؛ أخطأ في الوقف فقلب المعنى، والصواب أن يقرأ الكلام بتمامه، وهو: «مَا خَيْرَ رَسُولٍ لِلَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ»^(١).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٥٦٠، ومسلم برقم: ٢٣٢٧.

وقد خاطب سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام فرعون بالفاظ لينة محبة، عملاً بوصية الله تعالى بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، ولكن في نهاية المطاف لما علم تطاول فرعون أجابه بمستوى يليق بتطاوله، وبعبارات أشد وأضرى من عباراته الأولى، فلما قال له فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ كان رد سيدنا موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١ - ١٠٢]، ومعنى: ﴿مَثْبُورًا﴾، أي: مغلوبًا هالكا^(١).

ولا تبعد التُّجعة إن قلت: إن خطاب الداعية قد يتغير عندما يغلب على ظنه عدم استجابة المتغطرس قائد الجماعة، وعند تماديه في الغي والطغيان، وتطاوله في الألفاظ، فإذا ترجح لدى الداعي أن الكلام الشديد الموجه للمتغطرس ينفع جماعته الضعاف، ويوصل الرسالة لهم فيمكن أن يلجأ إليه ويستعمل أسلوبه.

فالشدة لا تطغى على اللين، وكذا اللين لا يمحو الشدة، وعلى مقتضى القول المعروف:

لَا تَكُنْ لَيْنًا فَتُغْصَرُ وَلَا يَابِسًا فَتُكْسَرُ



(١) انظر: تفسير الآيات في موضعها من تفسير ابن كثير ٥: ١٢٦.

القاعدة الثانية عشرة

١٢. لا تتوقع من الناس أحد النقيضين:

الاستجابة ولا الرفض، ولا الإقبال

ولا الإعراض، ولا المدح ولا القدح.

من القواعد المهمة التي ينبغي أن يتحلّى بها الداعي إلى الله عدم الجنوح لتصديق الناس له أو تكذيبه، فإنه إن مالت نفسه إلى التصديق وغلب على ظنه أنهم سيشكرونها ثم رأى العكس أحبط، وإن غلب على ظنه تكذيب الناس وأذيتهم له وعدم الاستجابة تقاعست همته عن الدعوة، أو دعا من غير تحمس، ولا أظنه يحسن الابتسامة، وحسن العرض إذا كان قد خيم على عقله أنه سيقابل بالتكذيب والإساءة.

ومن تذوّق سيرة النبي ﷺ الدعوية يجد أنه ﷺ لما عرض دعوته على الناس، اعترف الأنصار أنهم كانوا ضلّالاً فهداهم الله بنبيه ﷺ، وكانوا متفرقين فألفهم به، وكانوا عالة فأغناهم الله به^(١)، وأبو لهب - وهو عمه - قال له: تبّاً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا^(٢).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٣٣٠، ومسلم برقم: ١٠٦١.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٧٧٠، ومسلم برقم: ٢٠٨، وهذا لفظ البخاري: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» - لبطن قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟»، قالوا:

فالميل إلى النتيجة المتوقعة قبل الدعوة خطأ فادح، لأنها ستؤثر سلباً لا محالة في حال الداعي إن لم تتوافق العاقبة مع ما توقعه.

ومن لطيف الأدلة ما ورد في معرض الحديث عن بدء الوحي عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: ... انْطَلَقْتُ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً تَنْصَرَفِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا التَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى ﷺ يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ مُخْرِجِي هُمْ»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا^(١).

ففي بادئ الأمر لم يخطر ببال النبي ﷺ أن قومه مخرجوه من بلده، لكن الله تعالى ساق لحبيبه ﷺ هذه النصيحة على لسان هذا الناصح الأمين، كي يبقى على حال متوسط، بين أن يستبشر باستجابة الأحباب، وإخراج وإساءة الأعداء.

أما أن تكون لديه الرؤية البعيدة أنه سينتصر، وأن دعوته ستؤتي أكلها

نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعنا، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ [المسد: ١-٢].

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤، ومسلم برقم: ١٦٢.

فهذا أمر رائع مُحَبَّب، كما ورد في الحديث الصحيح: «لَا يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْإِسْلَامَ بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ»^(١).

فالرؤية البعيدة شيء، وتوقع النتائج السريعة شيء مغاير.

والداعية على الوسط واقف، لا يفاجئه رفض الناس ولا إعراضهم أو ذمهم، كما لا تغريه إجابتهم ولا المدح ولا التعظيم له، إن ردوا دعوته قال: يا رب إنهم عبادك، وإن قبلوا ناجاه: ذاك فضلك.



(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٦٩٩.

القاعدة الثالثة عشرة

١٣. لا تبال بالمكذبين ولا تغتر بالموافقين،
ولك في الحبيب ﷺ أسوة حسنة

يقول الشيخ محمد أبو زهرة (ت: ١٣٩٤ هـ) رحمه الله: «إن اليأس لم يصل إلى قلب النبي ﷺ وقد تحمل الأذى ثلاث عشرة سنة دأباً، فما يئس فيها ساعة من زمان، وما يئس يوم أن رأى شبه إجماع من المشركين على عداوته، وما يئس يوم أن ذهب إلى ثقيف في الطائف، فأغروا به سفهاءهم، وأدموه، بل قال مقالة الراجي ما عند ربه: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(١) وقال: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى»^(٢) وما يئس ﷺ ومن معه عندما كان جيش الإيمان قد أثقل بالجراح في أحد، بل إنه لما علم أن المشركين هموا بأن يعودوا للقضاء على جيش الحق، دعا الجيش الجريح لأن يعود إلى الميدان، بل إلى تتبع آثار المشركين، ولم يدع إلا من ذاق الجرح، وابتلي في الميدان، فصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

قد يقول قائل: هذا مقام النبوة، فهو مؤيد من الله تعالى، والوحي كان ينزل عليه، والله يمدّه بنصر من عنده، فهو المتبوع في الحق، فهل يبلغ التابع درجة المتبوع؟

(١) لعل الصواب أنه قال هذا يوم أحد، والحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم: ٩٧٣.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري برقم: ٣٢٣١.

والجواب: حاشا أن يبلغ أحد ما بلغه المصطفى ﷺ، أجل؛ إن الله عاصم رسوله من الناس، ويحقق له الغاية بنصره وتأييده، ولكن الأسباب والتخطيط كلها كانت من أعماله ﷺ، وقوة إيمانه هو وأصحابه ونصرهم لله تعالى بالعمل الصالح، واتخاذ الأسباب، كما قال تعالى: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد ﷺ: ٧]. لأن عمل الرسول ﷺ في أسباب النصر والدعوة بشري، كان على أصحابه أن يقتدوا به ويسلكوا سبيله، ويتبعوه ليبقى التبليغ موصولا غير مقطوع، ولتبقى كلمة الله عليا دائما، ولذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وإن الدعوة فيما يمكن فيه الأسوة، وهي العمل بمقتضى البشرية، أما الوحي والتثبيت الرباني من الله تعالى فهو من أوصاف النبوة، لا يسمو إليه أحد من العباد^(١).

روى الشيخان عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورٍ^(٢) بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ، إِذَا سَجَدَ فَانْبَعَثَ أَشَقَى الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى إِذَا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أَعْيُرُ شَيْئًا لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ، قَالَ: فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى جَاءَتْهُ

(١) «الدعوة إلى الإسلام» للشيخ الإمام محمد أبو زهرة ص ٥١ وما بعدها، باختصار يسير جدا.

(٢) السلي: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفا فيه. انظر النهاية في غريب

الحديث والأثر: ٢: ٣٩٦، مادة: سلا.

فَاطِمَةُ، فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَى: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ ابْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلْفٍ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ»، وَعَدَّ السَّابِغَ، فَلَمْ يَحْفَظْ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَرَغِي فِي الْقَلْبِ: قَلْبِي بَدْرٍ^(١).

أقول: هذا موقف من مواقف البدايات في تاريخ دعوة رسول الله ﷺ، ولو أن النبي ﷺ استكان لهذا الواقع المرير لانقطع عن الدعوة، ولا سيما إذا قارنه بأخبار الأنبياء من قبله، كالذي دام في قومه ٩٥٠ سنة، وما استجاب منهم إلا القليل، والذي ألقاه قومه في النار، والذي نشروا رأسه، ومن أخرجوه من قريته، وغيره.. وغيره، لكن الحبيب ﷺ كان يمزج هذه الأخبار ببشارات الله تعالى، من أن الله تعالى سيظهره وينشر دينه، فكان بأبي هو وأمي يقول جازماً من دون أدنى شك: «وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(٢).

ومثل هذا الموقف تماماً في التوكل على الله والاعتزاز به كان موقفه ﷺ بعد أن كثر أصحابه، وزاد أتباعه، فما تغيرت وجهته ولا تزعزع اعتماده، ولو أن الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يعتز بالعدد لانهارت قواه يوم ردة المرتدين وهم ألوف من العرب، ومن أوضح الأمثلة حال سيدنا موسى مع قومه، فما استقر

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٤٠، ومسلم برقم: ١٧٩٥.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٦١٢.

فرحه بإسلام أصحابه وإذعانهم للإيمان بالله تعالى حتى قال له أصحابه بعد عبورهم البحر: ﴿يَمُوسَىٰ أَجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مَتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَيَطْلُبُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٤٠].

ولو اتكأ سيدنا موسى واغتر بالأتباع لانهارت عزيمته الدعوية بمثل هذا الطرح من التابع نفسه، ولما استطاع إكمال المرحلة بسلامة، ولكن اعتماد الداعي على الله تعالى، فقد ينقلب الصديق عدوًا، وقد يتغير العدو إلى صديق، وربما اشتد أذى المعادي، كما قد يصدر الضر من الصديق.



القاعدة الرابعة عشرة

١٤. تعلم حكمة الحبيب ﷺ مع
المعارضين له.

إن حاجة الناس للدين كحاجة المصباح إلى الكهرباء، وحاجة الجسد إلى الطعام، وحاجة الحياة إلى الروح، إذ الناس بغير الدين كالبهائم، قال تعالى في وصف الكفار: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

والسؤال الآن: ماذا فعل الحبيب ﷺ مع المعارضين؟ لقد استخدم معهم الأساليب الثلاثة التي أرشده الله إليها في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. قال الفخر الرازي (٦٠٦ هـ) رحمه الله: «اعلم أنه تعالى أمر رسوله أن يدعو الناس بأحد هذه الطرق الثلاثة، وهي: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالطريق الأحسن، وقد ذكر الله تعالى هذا الجدل في آية أخرى فقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ولما ذكر الله تعالى هذه الطرق الثلاثة وعطف بعضها على بعض وجب أن تكون طرقاً

متغايرة متباينة^(١).

أقول: عرض دعوته، وبيّن أدلته، واهتم كثيرًا لإصلاحهم، إلى أن أجهد نفسه، فنبهه الله تعالى لذلك بقوله له: ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، والأهم من هذا أنه مضى في دعوته ولم يتوقف، ولم يبال بهم، كما لم يميز بين معارض وبين محاييد من حيث تقديم الدعوة، ولكنه حرص على هدايتهم أجمعين.

فإذا ما فاجأك - أيها الماشي في طريق الدعوة - موقف من معارض فأقتد بحبيبك المصطفى ﷺ الذي لم يعبأ لمثل هذا التخذيل، ولم يكثر لهدم الهادمين، إنما مضى مسرعًا نحو الهدف الذي وعده إياه ربه، فالطبيب يشفق على المريض إن أعرض عن العلاج، ولا يؤثر ذلك سلبًا في مسيرته.

وما أنجح الداعي الذي يتصور نفسه أنه صاحب بضاعة، فهو يعرضها بأحسن أسلوب، فإن استجاب الناس فهو خير، وإن لم يستجيبوا له فإن صدهم لن يحجمه عن مشروعه أبدًا، وإن الداعية لا يدري في أي سامعيه البركة^(٢).

روى أحمد (ت: ٢٤١ هـ) رحمه الله، بسند صحيح عن ربيعة بن عباد الديلي رضي الله عنه أنه قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَمُرُّ فِي فِجَاجِ ذِي الْمَجَازِ إِلَّا

(١) «مفاتيح الغيب» ٢٠: ١١١.

(٢) إشارة لاقتباس من حديث جابر رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا، فَلْيَمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَدَى وَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ، وَلَا يَمْسَحْ يَدَهُ بِالْمِنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبَرَكَةُ». أخرجه مسلم برقم:

أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَهُ، وَقَالُوا: هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: وَرَجُلٌ أَحُولُ وَضِيءُ الْوَجْهِ ذُو غَدِيرَتَيْنِ يَتَّبِعُهُ فِي فِجَاجِ ذِي الْمَجَازِ وَيَقُولُ: إِنَّهُ صَابِيٌّ كَاذِبٌ. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ^(١).

ولقد صدق الله تعالى بتسليته لنبيه عندما كذبه قومه بقوله: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ ^(١٥) يَوْمَ لَا يَغْنَى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ^(١٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ^(١٧) وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٥ - ٤٨].

وقال تعالى على لسان لقمان الحكيم وهو يعظه في السورة التي سميت باسم هذا الرجل الحكيم: ﴿يَبْنَى أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] ولعل الحكمة من هذا أن جلَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيه ابتلاء، وما بعث نبي قط إلا عذب مع قومه، وعارضوه وأصابه الأذى، وكذلك هم أتباع الرسل من الدعاة.

وأزيد هنا جملة: وهي أن على الداعي أن يوطن نفسه ليس على احتمال الأذى في الدنيا فحسب، وإنما على الإنكار للدعوة في الآخرة أيضًا، فقد حذر القرآن الكريم أهل الكتاب من الإنكار في الآخرة لدعوة النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

(١) أخرجه أحمد برقم: ١٦٠٢٦.

وروى البخاري (ت: ٢٥٦ هـ) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغْتُمْ؟، فَيَقُولُونَ: لَا، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ: لِنُوحٍ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟، فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وَالْوَسْطُ الْعَدْلُ»^(١).

فها هي ذي خبرة الأنبياء بين يديك، فما ذكرها الله في القرآن إلا لتأخذ منها العبرة، ولك في الحبيب أسوة حسنة في معاملة المناوئين بل والمقاتلين.



(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٣٩.

القاعدة الخامسة عشرة

١٥. ابدأ دعوتك مع المخاطب من حيث حاجته لا ما حضر في ذهنك.

تختلف الدعوة باختلاف المدعو، إن كانت مع فرد، أو جماعة محصورة، أو جماعة عامة:

أ- فالدعوة للفرد إنما يكون بدء الدعوة من حيث مستواه في الدين، فمن كان كافرًا كان البدء معه من الإيمان بالله، ومن كان مسلمًا مقصرًا بالصلاة مثلاً، فها هنا نقطة البدء لديه، ومن كان ملتزمًا بصغير أمور الدين وكبيره فيمكن أن أذكره بدق الأمور وجلّها عند الحاجة.

لقد ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». فَارْجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». ثَلَاثًا، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أَحْسِنُ غَيْرُهُ فَعَلَّمَنِي، فَقَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَظْمِنَ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَظْمِنَ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَظْمِنَ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»^(١).

ويروي الترمذي (ت: ٢٧٩ هـ) عَنْ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَالٍ فَقَسَمَهُ، فَأَنْتَهَيْتُ إِلَى رَجُلَيْنِ جَالِسَيْنِ، وَهُمَا

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٥٧، ومسلم برقم: ٣٩٧.

يَقُولَانِ: وَاللَّهِ مَا أَرَادَ مُحَمَّدٌ بِقِسْمَتِهِ الَّتِي قَسَمَهَا وَجْهَ اللَّهِ وَلَا الدَّارَ الْآخِرَةَ، فَتَثَبَّتْ حِينَ سَمِعْتُهُمَا، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَخْبَرْتُهُ، فَأَحْمَرَّ وَجْهُهُ، وَقَالَ: «دَعْنِي عَنْكَ فَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»^(١).

أجل لقد ابتدأ الحبيب ﷺ مع المسيء صلاته من الصلاة، ولم يحدثه عن الإيمان وأصول الدين، كما لم يحدث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الإيمان بالغيب ولا الإيمان بالملائكة، ولا اليوم الآخر، لكنه ﷺ حَدَّثَ ضَمَامَ بْنَ ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما جاء يسأل عن الدين^(٢).

ولا يعقل بحال أن أشرع بالنصح عن أهمية الشرب باليد اليمنى لمن شرب باليد اليسرى، وأنا لا أدري عن السامع شيئاً أهو من المصلين للفروض أم المضيعين؟ وما فائدة الاسترسال بالتذكير بأهمية العقيدة مع إنسان أخطأ فتناول شيئاً باليد اليسرى وهو من الراسخين بالعلم؟

فمن الخطأ البين التنبيه عما بدا من الزلل دون التشخيص الأول للأغلاط.

وأخطأ بعض الدعاة عندما وضع خطته الدعوية تنطلق مع كل أحد من

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٨٩٦، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد زيد في هذا الإسناد رجل». قلت: ولا ريب أن الحديث صحيح، فقد أخرجه البخاري برقم: ٦١٠٠، ومسلم برقم: ١٠٦٢، ولفظهما: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ قِسْمَةً كَبِغَضَ مَا كَانَ يَقْسِمُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: وَاللَّهِ إِنَّهَا لَقِسْمَةٌ مَا أُريدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، قُلْتُ: أَمَا أَنَا لَأَقُولَنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي أَصْحَابِهِ فَسَارَرْتُهُ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَغَضِبَ، حَتَّى وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَخْبَرْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرٍ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ».

(٢) الحديث بطوله ص: خطأ! الإشارة المرجعية غير معروفة..

نقطة العقيدة، وبعضهم من نقطة الأخلاق، وبعضهم تمسك بجزئية من الإسلام فجعلها شغله الشاغل، وغيرهم وغيرهم... فالأول احتج بأهمية العقيدة التي هي أول ما يؤسس عليه، والثاني قال: إذا عرف الأخلاق وخالطت بشاشتها القلوب تقبلت ما هو أكبر منها، وكل واحد من هؤلاء وغيرهم تبني حجة ودفع بها، لكن الإشكال سرعان ما يظهر عندما يبدأ من نقطة العقيدة مثلاً، فيظهر له أن المقابل متجاوز لهذه المراحل.

عزى رجل - ممن يحب الدعوة ووعظ الناس - صديقه بوفاة ابنه الشاب الذي كَلَّمَ قلبه بحادث سير أليم، فجلس يتكلم عن ضرورة التنزه من البول؟؟ فقالوا: لعل للحديث مناسبة، بما أنه في عزاء، وقد ورد عذاب القبر فيمن لا يستبرئ من بوله، لكن الشيخ فاجأ الكل وتكلم بالحديث نفسه في حفل زفاف، ثم زاره بعض أساطين العلم ففتح الحديث نفسه واسترسل فيه، حتى أراد أحد العلماء أن يلوي حديث السمر إلى غيره مما يتناسب والحاضرين، فأصر الشيخ، فقاطعه أحدهم فعاد للحديث، فتعمد صاحب البيت أن يدخل الضيافة والقرى وأشغل الحاضرين بالطعام ثم رمى بنكتة ليضحك الكل، فانتهاز الشيخ الفرصة للعودة إلى الحديث نفسه، يا لله ما أشد إصراره!!! وجُلُّ الحاضرين من أكابر أهل العلم، ثم من خلال تناقل الناس لحال الشيخ، وجمعهم لأخباره في جلسات متنوعة تبين لهم بأن الشيخ يُصر على هذا الحديث في كل مناسبة وجلسة خاصة أو عامة..

ب - وأما الدعوة للجماعة المحصورة: فإذا كان في أقوام غلب عليهم الصلاح والالتزام كأن تكون الكلمة بين شيخ وتلامذته الخواص، وهم

الملازمون المتهمجون معه القائمون لليالي معه، فلا حرج عندها من الكلام عن أي موضوع يرى الحكمة في الكلام فيه، وإن كان الأقوام من ألوان شتى فلعل الأفضل عندها تنويع الحديث بما يتناسب مع الزمان والمكان، ففي الفرح ينوع في كلامه ضمن الحديث عن الفرح، وعلى العكس من ذلك يكون في الترح، وفي كل مناسبة ما يناسبها...

ج - وأما الدعوة للجماعة العامة: فحال المدعويين هو الذي يفرض على الداعي نقطة الانطلاق، فإذا كان في قوم قد تفشى فيهم الكبائر فمن الغلط أن يحدثهم عن اللطائف والكمالات والتحسينات الدينية، كقيام الليل، ولذة المناجاة، وإذا كان القوم أخلاطاً نوّع في حديثه بحيث لا يخرج أحد من الحاضرين إلا بفائدة.

وما أجمل التنويع الذي تجده في القرآن عندما يحدث الله تعالى عباده عن الطلاق الشرعي، ثم يلحق معه الأمر بعظيم الأخلاق، فيقول: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ويشبهه الحديث عن الربا، وهو كلام في كبيرة عظيمة، فيختم الآية بقوله: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، أرأيت التنويع في الخطاب! الذي سيقروه المطلق لزوجهم وغيره، وآكل الربا والمعافى من دنسه، ولن يغادر أحد الآيات إلا بعظة وعبرة، وفائدة ودعوة.

أخرج الترمذي (ت: ٢٧٩ هـ) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْأَخْوَصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ شَهِدَ حَجَّةَ الْوَدَاعِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ وَذَكَرَ وَوَعَظَ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ يَوْمٍ أَحْرَمُ؟ أَيُّ يَوْمٍ أَحْرَمُ؟ أَيُّ يَوْمٍ أَحْرَمُ؟» قَالَ، فَقَالَ النَّاسُ: يَوْمُ الْحَجِّ

الْأَكْبَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، أَلَا لَا يَحْنِي جَانٍ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ، وَلَا يَحْنِي وَالِدٌ عَلَى وَلَدِهِ، وَلَا وَلَدٌ عَلَى وَالِدِهِ، أَلَا إِنَّ الْمُسْلِمَ أَخُو الْمُسْلِمِ، فَلَيْسَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَحَلَّ مِنْ نَفْسِهِ، أَلَا وَإِنْ كُلُّ رَبٍّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضِعٌ، لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، غَيْرَ رَبِّ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضِعٌ كُلُّهُ، أَلَا وَإِنْ كُلُّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضِعٌ، وَأَوَّلُ دَمٍ أَضْعُ مِنْ دَمِ الْجَاهِلِيَّةِ دَمُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، كَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي لَيْثٍ فَقَتَلَتْهُ هَذِيلٌ، أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِجٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، أَلَا وَإِنْ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ، فَلَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلَا وَإِنْ حَقَّهِنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ»^(١).

يظهر تنوع الحديث في هذا الخطاب الذي جمع أخلاطا من الناس.

فإن أردت الريادة في الدعوة، فابدأ دعوتك من حيث حاجة المدعو، ولا بأس في تنويع الحديث إذا كان البيان لأناس قد تعددت مستوياتهم.



(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٠٨٧، وقال: «حديث حسن صحيح».

القاعدة السادسة عشرة

١٦. راع الربط الصحيح بين الكلام
والمناسبة والشخص المتكلم معه

دخل رجل الخلاء فكتب على بابه من الداخل: هذا الخلاء متجه باتجاه القبلة، فاجلس وأنت متوجه بصدرك نحو اليمين أو اليسار قليلاً، فدخل بعده مَنْ كتب: لكن النهي الوارد إنما هو لقضاء الحاجة في الصحراء والأماكن غير المسكونة، ثم دخل داخل فكتب: نعم وهذا ما أفقئ به سماحة المفتي فلان!!! فجاء من عقب بقوله: لكن ظاهر الدليل يخالف قول سماحة المفتي وبه أفقئ شيخنا فلان، فدخل الأخير وكتب: لا أدري هل دخلت الخلاء أم المجمع الفقهي!!

صدقوني أنني لم أذكر هذه الحادثة طرفة ولا نكتة، ولكن الرابط إذا فقد أو انقطع بين الكلام والمناسبة حدثت مثل هذه المهازل التي تضحك التَّكَلَّى.

قال ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١ هـ) رحمه الله: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار يقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم»^(١).

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» ٣: ١٣.

لقد كان النبي ﷺ يتكلم كل مرة بما يناسب الموضع من كلام، وما يلائم الوقت من حديث، فمرة تكلم مع متزوج بما يناسب حاله، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ، فَأَخَى النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ سَعْدٌ ذَا غِنَى، فَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: أَقَاسِمُكَ مَالِي نِصْفَيْنِ وَأَزْوَجَكَ، قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ، فَمَا رَجَعَ حَتَّى اسْتَفْضَلَ أَقْطَا وَسَمْنَا، فَأَتَى بِهِ أَهْلَ مَنْزِلِهِ فَمَكَّنَّا سِيرًا، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَجَاءَ وَعَلَيْهِ وَضْرٌ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَهْمٌ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: «مَا سَفَتَ إِلَيْهَا؟»، قَالَ: نَوَاةٌ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ وَرَنٌ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: «أُولِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ»^(١).

وكانت موعظته لأحد المتخاصمين في دين أن يضع شيئاً من دينه، كما ورد: عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ تَقَاضَى ابْنُ أَبِي حَدَرٍ دَيْنًا، كَانَ لَهُ عَلَيْهِ فِي الْمَسْجِدِ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا، حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ، فَنَادَى: «يَا كَعْبُ» قَالَ: لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «ضَعْ مِنْ دَيْنِكَ هَذَا». وَأَوْمَأَ إِلَيْهِ: أَيِ الشَّطْرِ، قَالَ: لَقَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «قُمْ فَاقْضِهِ»^(٢).

ولما رأى أمامه المنكر من ضرب العبيد نهى عنه، ولم يحدث عن عذاب القبر ولا نعيم الجنة، قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ». فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنَ الْعُصْبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ أَبَا

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٠٤٩، ومسلم برقم: ١٤٢٧ مختصراً جداً.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٥٧، ومسلم برقم: ١٥٥٨.

مَسْعُودٍ، اَعْلَمَ أَبَا مَسْعُودٍ. قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدَيَّ، فَقَالَ: «اعْلَمَ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغَلَامِ». قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا.

واسمع هذا الخطاب الذي يناسب المرأة في يوم العيد بالذات، وعند اجتماعهن في طاعة، وعقب نصحه للرجال تمامًا، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيْتُكُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ». فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبِ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ». قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلُ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟» قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: «فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟» قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: «فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا»^(١).

وفي لفظ: «تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ»^(٢).

وأما خطاب النبي ﷺ للأعرابي الذي لا يحسن ألفاظ ودعوات النبي ﷺ فقد كان إرشاده غاية في الحكمة، لما سأل: «كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟» قَالَ: أَتَشْهَدُ، ثُمَّ أَقُولُ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أَمَا إِنِّي لَا أَحْسِنُ دَنْدَنْتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حَوْلَهَا نَدْنِدُنْ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٤، ومسلم برقم: ٤٩.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ١٤٦٦، ومسلم برقم: ١٠٠٠.

(٣) أخرجه أبو داود برقم: ٧٩٢، وأحمد برقم: ١٦١٤٣، والحديث صحيح لغيره.

ووعظ الناس على شفير القبر بعد أن دفن ميتاً بما يناسب الموقف: عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جَنَازَةٍ، فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ، فَبَكَى حَتَّى بَلَ الثَّرَى، ثُمَّ قَالَ: «يَا إِخْوَانِي، لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا»^(١).

قِيلَ لِحَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَكُنْتَ تُجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَثِيرًا كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحُ أَوْ الْعَدَاةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قَامَ. وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ فَيَضْحَكُونَ وَيَتَبَسَّمُونَ^(٢).

في الأحاديث الأنفة كلها دقة في انتقاء النصيحة التي تناسب المناسبة، والموعظة والحالة الراهنة، ولكل مقام مقال، والبلاغة مراعاة الحال، ولئن حصل نفع من بعض الدعاة على غير وفق هذه القاعدة، فهي الحالة الشاذة التي لا يقاس عليها.

وما أعمق فهم الإمام أحمد (ت: ٢٤١) رحمه الله، عندما راعى الربط الصحيح بين الموقف والمناسبة، ليس الكلام فقط، فقد نقل عنه ابن القيم (ت: ٧٥١ هـ) رحمه الله بقوله: وقد نص الإمام أحمد على أن الرجل إذا شهد الجنازة فرأى فيها منكراً لا يقدر على إزالته أنه لا يرجع، ونص على أنه إذا دعي إلى وليمة عرس فرأى فيها منكراً لا يقدر على إزالته أنه يرجع، فسألت شيخنا - أي: ابن تيمية - عن الفرق فقال: لأن الحق في الجنازة للميت، فلا يترك حقه لما فعله الحي من المنكر، والحق في الوليمة لصاحب البيت، فإذا أتى

(١) أخرجه أحمد برقم: ١٨٦٠١، وابن ماجه برقم: ٤١٩٥، واللفظ له، وهو حديث ضعيف.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٦٧٠.

فيها بالمنكر فقد أسقط حقه من الإجابة^(١).

هذا: وإنك لتجد الدعوة قد أثمرت وأينعت على يد بعض الدعاة، ولعل أهم أسبابها التوفيق من الله بالكلمة المناسبة، في الوقت المناسب، صادفت أذنًا واعية.



(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» ٤: ١٦٠.

القاعدة السابعة عشرة

١٧. شَخَّصْ أمراض المدعو وابدأ
بأخطرها فقط

يقول الشيخ محمد الغزالي (ت: ١٤١٦ هـ) رحمه الله: «دخلت مكتبي فتاة لم يعجبني زيتها أول ما رأيته، غير أنني لمحت في عينها حزناً وحيرة يستدعيان الرفق بها، وجلست تبثني شكواها وهمومها متوقعة عندي الخير.

واستمعت طويلاً، وعرفت أنها عربية تلقت تعليمها في فرنسا لا تكاد تعرف عن الإسلام شيئاً، فشرعت أشرح حقائق، وأرد شبهات، وأجيب عن أسئلة وأفند أكاذيب المبشرين والمستشرقين حتى بلغت مرادي أو كِدْتُ!

ولم يفتني في أثناء الحديث أن أصف الحضارة الحديثة، بأنها تعرض المرأة لحماً يغري العيون الجائعة، وأنها لا تعرف ما في جو الأسرة من عفاف وجمال وسكينة...

واستأذنت الفتاة طالبة أن أذن لها بالعودة، فأذنت...

ودخل بعدها شاب عليه سمات الدين يقول بشدة: ما جاء بهذه الخبيثة إلى هنا؟ فأجبت: الطيب يستقبل المرضى قبل الأصحاء، ذلك عمله!! قال: طبعاً نصحتها بالحجاب! قلت: الأمر أكبر من ذلك، هناك المهاد الذي لا بد منه، هناك الإيمان بالله واليوم الآخر، والسمع والطاعة لما تنزل به الوحي في الكتاب والسنة، والأركان التي لا يوجد الإسلام إلا بها في مجالات العبادات والأخلاق...

فقاطعتني قائلاً: ذلك كله لا يمنع أمرها بالحجاب. قلت في هدوء: ما يسرني أن تبجيء في ملابس راهبة وفؤادها خال من الله الواحد، وحياتها لا تعرف الركوع والسجود، إنني علمتها الأسس التي تجعلها من تلقاء نفسها تؤثر الاحتشام على التبرج.

فحاول مقاطعتي مرة أخرى فقلت له بصرامة: أنا لا أحسن جر الإسلام من ذيله كما تفعلون، إنني أشد القواعد وأبدأ البناء بعدئذ، وأبلغ ما أريد بالحكمة...

وجاءتني الفتاة بعد أسبوعين في ملابس أفضل، وكانت تغطي رأسها بخمار خفيف، واستأنفت أسئلتها، واستأنفت شروحي، ثم قلت لها، لم لا تذهبين إلى أقرب مسجد من بيتكم؟

وشعرت بندم بعد هذا السؤال، لأنني تذكرت أن المساجد محظورة على النساء! لكن الفتاة قالت: إنها تكره رجال الدين، وما تحب سماعهم! قلت: لماذا؟ قالت: قساة القلوب غلاظ الأكباد!! إنهم يعاملوننا بصلف واحتقار!...^(١).

أبتدئ في شرح هذه القاعدة بقاسم مشترك بين عدد من الحوادث التي رأتها عينايا كما سمعتها أذنائي، لكن قلبي مرض لها، فكثيراً ما رأيت بعض النشاط في الدعوة يبادرون أشخاصاً بنصح، وهم غافلون عما إذا كان في المنصوح مرض أخطر منه، فعلى سبيل المثال: قد تجد شخصاً ينصح غيره في إطلاق اللحية، وهو غير عارف أمسلم هو أم غير مسلم، ومن يبادر بفضيلة

(١) «الحق المر» للشيخ محمد الغزالي ص ٢٧ وما بعدها.

من الفضائل كتسريحة الشعر مثلاً وهو لا يدري إن كان صاحبه على عقيدة صحيحة أم لديه لوثات عقدية؟

ومن عمق ابن الجوزي (ت: ٥٩٧ هـ) رحمه الله في الدعوة أنه سئل: أيما أفضل أسبّح أو أستغفر؟ فقال: «الثوب الوسخ أحوج إلى الصّابون من البخور»^(١).

قد أُسأل: هل يجب علي أن أفهم ترجمة كل من رغبت بنصحه كي أبدأ بأخطر الأمراض لديه إذن؟

أقول: قطعاً ما قصدتُ هذا، وما أظن عاقلاً يبادره فهمه به، لكن لنفرض أنك رأيت من لبس لباساً مخلاً بالأدب، وعرف الناس أنه لباس غير المتزن، فبوسعك أن تبتسم بوجهه، وتسأله عن حاله ودراسته ونبذة يسيرة في مسيرته، وعمله، ثم بعدها تقرر أتقدم النصح له بهذه الجزئية أو لا.

وأصرح دليل أراه في هذه المسألة، ما رواه البخاري (ت: ٢٥٦ هـ) ومسلم (ت: ٢٧١ هـ)، وهذا لفظ البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: «ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»^(٢).

وفي هذا الحديث التصريح لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألا ينتقل للخطوة الثانية حتى

(١) «تاريخ الإسلام» للذهبي ١٢: ١١٠، ترجمة رقم: ٣٧٥.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٦١٢، ومسلم برقم: ٢١.

ينتهي من الأولى، وهكذا دواليك.

يقول الشيخ علي الطنطاوي (ت: ١٤٢٠ هـ) رحمه الله: «إذا دخلت شوكة في إصبع الولد بين ظفره ولحمه، وغرزت فيها، يهتم أبوه ويسرع به إلى الطبيب، لكن إذا كان الولد مصابًا بورم خبيث ووضعه تحت العملية الجراحية، وكان معرضًا للموت بين دقيقة وأخرى، ورأى الطبيب الشوكة في إصبعه فإنه لا يلتفت إليها، لأنه يشتغل بما هو أهم، بإنقاذ حياة الولد من خطر الموت»^(١).

أجل أيها الفطن، إن في الاشتغال بالأساسيات لمندوحة عن الاشتغال بالجزئيات، والبيت الذي يفتقر إلى طلاء الجدران بالإسمنت لا يفيد فيه الصباغ الخالص ولا المكملات الحسنة، وليس في الورى عاقل يقدم الموالح ومسلّيات الطعام لمن كاد العطش يفتك كبده وهو قادر على مساعدته، أو يشتغل بتنشيف رأس الغريق كي لا يصاب بالزكام، بل ينقذه خارج الماء أولاً، ثم يقدم الأولى فما دونه.

بيد أني أستثني من هذا، إذا ما خشي الداعي خللاً قد يكون في المدعو، فله أن يلفت النظر والانتباه إليه بشكل خاص، فعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ أَوْلَاءٍ وَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى أَنْ لَا آتِيكَ، وَلَا آتِي دِينَكَ، وَإِنِّي قَدْ جِئْتُ امْرَأً لَا أَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولُهُ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللَّهِ، بِمَ بَعَثَكَ رَبُّنَا إِلَيْنَا؟ قَالَ: «بِالْإِسْلَامِ» قَالَ:

(١) انظر كتاب: «فصول في الدعوة والإصلاح» ص ١٢٧.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا آيَةُ الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: «أَنْ تَقُولَ: أَسْلَمْتُ وَجَّهِي لِلَّهِ وَتَحَلَّيْتُ»^(١)، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَكُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ، أَخَوَانٍ نَصِيرَانِ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مُشْرِكٍ يُشْرِكُ بَعْدَ مَا أَسْلَمَ عَمَلًا، أَوْ يُفَارِقُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، مَا لِي أُمْسِكُ بِمُحْزَرِكُمْ عَنِ النَّارِ! أَلَا إِنَّ رَبِّي دَاعِيٌّ، وَإِنَّهُ سَائِيٌّ، هَلْ بَلَغْتَ عِبَادِي؟ وَأَنَا قَائِلٌ لَهُ: رَبِّ قَدْ بَلَغْتُهُمْ، أَلَا فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ مَدْعُوُونَ وَمُقَدَّمَةٌ أَفْوَاهُكُمْ بِالْفِدَامِ^(٢)، وَإِنْ أَوَّلَ مَا يُتْرَجَمُ»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ عَلَى فَخِذِهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا دِينُنَا؟ قَالَ: «هَذَا دِينُكُمْ، وَأَيْنَمَا تُحْسِنُ يَكْفِكَ»^(٣).

وتبقى القاعدة الأساس: أن يبدأ الداعي بأخطر مرض يفتك في المدعو، ولا يتجاوزه إلى الذي دونه إلا بعد الشفاء التام.



(١) تحليت: أي: ابتعدت عن الشرك.

(٢) الفِدَام: مَا يُشَدُّ عَلَى فَمِ الْإِبْرِيْقِ وَالْكُوزِ مِنْ خِرْقَةٍ لَتَصْفِيَةَ الشَّرَابِ الَّذِي فِيهِ: أَيْ أَنَّهُمْ يُمْنَعُونَ الْكَلَامَ بِأَفْوَاهِهِمْ حَتَّى تَتَكَلَّمَ جَوَارِحُهُمْ، فَشَبَّهَ ذَلِكَ بِالْفِدَامِ. وَقِيلَ: كَانَ سُقَاةُ الْأَعَاجِمِ إِذَا سَقَوْا فَدَمُوا أَفْوَاهَهُمْ: أَيْ عَطَوْهَا. [النهاية في غريب الحديث: مادة فدم].

(٣) أخرجه أحمد برقم: ٢٠٠٣٧، وهو حسن.

القاعدة الثامنة عشرة

١٨. راع اتباع السلم الدعوي في دعوتك

الخلل في الإنسان على أنواع عدة:

- خلل فكري، مثل: اختلال منطق الأولويات.
- خلل عقلي، مثل: الجنون.
- خلل نفسي، مثل: حب الرئاسة والزعامة من غير رصيد كاف لها.
- خلل خُلقي، مثل: الكذب والحسد وأمثالها.
- خلل خَلقي، مثل: العمى وغيره وهذا ليس بعيب في الإنسان^(١).

إذا عرفت نقطة البدء التي أشرت إليها، حيث بدأت بأخطر خلل في المدعو فابق على استحضر تام لاستعمال السلم الدعوي الذي يبنيه الداعي للمدعو، بحيث يدعو للأصول قبل الفروع، والعقائد قبل الأحكام، والتنبيه على الكبائر أولاً، ثم الصغائر، وتقديم الأهم على المهم، والذنوب المتعلقة بالناس على المخالفات الشخصية، والفرائض على السنن، والسنن على المستحبات والآداب، والآداب الشرعية على الأعراف المحلية، وهكذا...

ولكن الجرعة تختلف باختلاف المتلقي، فإذا كان المتلقي حديث عهد، ولا يدري الداعي مدى استجابته، خفف له في الكمية، وطالبه بأهم الأمور، كما روى مسلم (ت: ٢٧١ هـ) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ

(١) أفدتها من أستاذي الجليل الداعية الشاعر: حيدر الغدير، والله يجزيه خيرًا ويثيبه.

يَوْمَ خَيَّرَ: «لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»! قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَا أَحْبَبْتُ الْإِمَارَةَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ! قَالَ: فَتَسَاوَرْتُ^(١) لَهَا رَجَاءً أَنْ أَدْعَى لَهَا. قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا وَقَالَ: «امْشِ، وَلَا تَلْتَفِتْ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ». قَالَ: فَسَارَ عَلِيٌّ شَيْئًا ثُمَّ وَقَفَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ، فَصَرَخَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَى مَاذَا أَقَاتِلُ النَّاسَ؟ قَالَ: «قَاتِلُهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»^(٢).

وإن كان المتلقي راسخ الإيمان قد قطع المرحلة الأولى فلا بد من زيادة الجرعة: كما في حديث أبي حمزة، فقد قال: كُنْتُ أَفْعُدُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ يُجْلِسُنِي عَلَى سَرِيرِهِ فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي حَتَّى أَجْعَلَ لَكَ سَهْمًا مِنْ مَالِي. فَأَقَمْتُ مَعَهُ شَهْرَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنِ الْقَوْمُ؟»، قَالُوا: رِبِيعَةٌ. قَالَ: «مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارٍ مُضَرٍّ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصَلِّ نُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ. وَسَلَّوَهُ عَنِ الْأَشْرَبَةِ: فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاَهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرَهُمْ: بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ،

(١) معنى «تساورت لها»: تناولت لها، أي: حرصت عليها، أي: أظهرت وجهي وتصديت لذلك

ليتذكرني. انظر شرح النووي على مسلم ١٥: ١٧٦.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٤٠٥.

وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمْسَ.... ثم ذكر الأمور التي نهاهم عنها^(١).

وخير الهدى في هذا هدي خير البرية ﷺ، حيث إنه جعل لكل شخص أمامه نقطة يبدأ بها، فالذي عنده إشكالات فكرية ابتداءً بها، والذي لا يعرف كفره من إسلامه ابتداءً بالعقيدة، ومن يعرف حقيقة إسلامه ووجد عنده ثغرة معينة انطلق من تلك النقطة مباشرة.

فالطفل الصغير الذي كان في كنفه يترى، وهو يعرف حقيقة إيمانه لم يحدثه عن أساس التوحيد، بل ذهب بالدعوة مباشرة إلى مذاق التوحيد، وهو ما حدث به ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ خَلَفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أَعَلَّمْتُكَ كَلِمَاتٍ؛ أَحْفِظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفِظِ اللَّهَ تَحُدُّهُ مُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(٢).

ولما رأى الطفل الآخر قد فَقَدَ أدبًا مهمًّا سدده الخلل، ووضع اللبنة الناقصة فكمل العمران، فَهَذَا عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: كُنْتُ غُلَامًا فِي حِجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا غُلَامُ، سَمَّ اللَّهُ، وَكُلَّ بِيَمِينِكَ، وَكُلَّ بِمِائِيكَ». فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ^(٣).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٣، ومسلم برقم: ١٧.

(٢) أخرجه الترمذي برقم: ٢٥١٦، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٥٣٧٦، ومسلم برقم: ٢٠٢٢.

والذي جاء ولديه شبهات عقدية ناقشه بها أولاً: كما روى الترمذي عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي: «يَا حُصَيْنُ، كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟» قَالَ أَبِي: سَبْعَةٌ سِتَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «فَأَيُّهُمْ تَعْبُدُ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟» قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «يَا حُصَيْنُ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ»، قَالَ: فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصَيْنُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمْنِي الْكَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي، فَقَالَ: «قُلِ اللَّهُمَّ الْهَمْنِي رُشْدِي وَأَعِزَّنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي». ففي هذا الحديث كان ابتداء الكلام من المنطلقات الفكرية التي تهدي لصحيح العقيدة، ثم الجرعة الروحية في دعوات تثبت العقيدة الحق، وتبتعد عن شرور النفس، ومنها الشرك وأدراجه^(١).

والتي لم يعرف إسلامها من كفرها ابتداءً بالسؤال عن إسلامها، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَصِلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَأَنْكَلُ أُمِّيَاءَ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَادِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمَّتُونِي، لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ، وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ، لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»، - أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، وَإِنَّ مِنَّا رِجَالًا يَأْتُونَ الْكُفَّانَ، قَالَ: فَلَا تَأْتِيهِمْ، قَالَ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ، قَالَ: «ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، فَلَا يَصَدِّقُهُمْ»، قَالَ: قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٣٤٨٣، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

يَخْطُونَ، قَالَ: «كَانَ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخْطُ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ»، قَالَ: وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ، تَرَعَى غَنَمًا لِي قَبْلَ أَحَدٍ وَالْجَوَانِيَّةِ، فَاطْلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَإِذَا الدَّيْبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَّكْتُهَا صَكَّةً، فَاتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُعْطِيهَا؟ قَالَ: «إِتَيْنِي بِهَا، فَاتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «أَعْتَقُهَا، فَإِنَّهَا مُؤَمِّنَةٌ»^(١). ويستفاد من هذا الحديث عدة مواقف دعوية، منها - وهو موضع الشاهد - أن النبي ﷺ راعى سُلَمَ الدعوة مع الرجل المصلي بما كان يجمله من الصلاة، ولم يسأله أمسلم أنت أو لا، ولم يتعرض لأمر العقيدة، إنما تجاوزها مباشرة إلى موضع الخلل، أما جاريته فلم يكن يعرف إسلامها، فابتدأ معها من نقطة بدء الإسلام.

أما في معرض الوصية الجامعة فيمكن أن تشتمل الوصية على مزيج بين الأمور أعلاها وأدناها، وما خطبة حجة الوداع^(٢) ببعيدة عن الأذهان، ولا وصية لقمان لابنه غريبة: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ إِلَى الْوَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ يَبْنَى إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ

(١) أخرجه مسلم برقم: ٥٤٠.

(٢) تقدمت ص ٨٢.

فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَنْبَغِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَسْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ [لقمان: ١٣ - ١٩].

وفي هذين الموقفين جاء الكلام عن العقيدة، والأمور الكبيرة، والصغيرة، حتى شملت الآداب العامة والذوقيات.

ويبقى الأصل مراعاة السلم الدعوي، والمشي مع سلم الأولويات الدعوية، من غير تجاوز، ومن غير إقحام لمفضول قبل فاضل، أو نافلة قبل فريضة، أو بناء قبل أساس.



القاعدة التاسعة عشرة

١٩. حدث الناس بالقدر الذي يناسبهم
وقرب إليهم دعوتك بقدر قربهم من
الدين

قد يرى الداعي خطأ واحدًا صدر من شخصين، ولكن حكمته تفرض عليه أن يوجه الأول، ويسكت عن الآخر، لأنهما ليسا سواء في القرب من الإسلام، والأشد من هذا، أن يبادر الداعي بتوجيه أخ في أمر من أمور الآداب المستحبات، ويسكت عن ترك واجبًا، وليس الداعي بمجازف ولا مخطئ في هذا، لأن الأول من أهل القربات والطاعات، وقد قطع شوطًا كبيرًا في التدين والالتزام، أما الآخر فهو حديث عهد بجاهلية، أو رقيق في الدين غير ملتزم به. لما أخطأ الداعون العباد الزهاد في طريقة دعائهم أرشدهم النبي ﷺ إلى صحيحه من غير مقدمات، كما روى البخاري (ت: ٢٥٦ هـ) في صحيحه:

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَجَعَلْنَا لَا نَضَعُ شَرَفًا، وَلَا نَعْلُو شَرَفًا، وَلَا نَهْبِطُ فِي وَادٍ إِلَّا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالتَّكْبِيرِ، قَالَ: قَدْ نَا مِنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا»، ثُمَّ قَالَ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَةً هِيَ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٦١٠، ومسلم برقم: ٢٧٠٤. ومعنى: اربعوا على أنفسكم: ارفقوا بها.

انظر: «فتح الباري»: ٣: ٣٧٤.

فهذا مما لم يسكت عنه النبي ﷺ، لأن صاحبه قريب من الإسلام، وقدمه راسخة في أصوله العظيمة.

في الوقت الذي سكت النبي ﷺ عن بال في المسجد^(١)، ولم يسكت عن الذي بزق في المسجد^(٢).. مع أن البول نجس، والبزاق طاهر.

وسكت عن الذي ناداه من وراء الحجرات، فلم يرد أنه كلمه أو عنّفه، ولم يسكت عن تطويل الصلاة من معاذ^(٣)..

وسكت عن الذي جبذه من رداءه حتى أثر الرداء في عنقه^(٤)، ولم يسكت عن أسامة عندما شفع في حد من حدود الله^(٥)...

فإن قيل لم هذا كله؟ الجواب: لأن الثاني مخالف للإسلام وغائص فيه، بحيث أوجب على الداعي أن ينبهه على صغائر الأمور، فهو متجاوز لكبارها.

وأمر بأمر من أصغر الأمور ولكن الشريحة اختلفت، حيث أمر من رسخ في الإيمان، وخالطت الأنوار بشاشة قلبه، فقال لهم: - كما جاء عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرَقَاتِ»،

(١) الحديث بتمامه ص ٦٤.

(٢) الحديث بتمامه ص ١٨٠.

(٣) الحديث بتمامه ص ١٩٩.

(٤) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أُمِشِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَحْرَانِي غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَافِي فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةٍ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرِّي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ. أخرجه البخاري برقم: ٣١٤٩، ومسلم برقم: ١٠٥٧.

(٥) انظر الحديث بتمامه ص ١٠٥.

فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا»، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ»^(١).

إن من خلال تنمة الحديث ليظهر جلياً أن الشريحة المخاطبة هي من نوع عال، قد تجاوزت مرحلة الإيمان، والفرائض، ووصلت إلى مرحلة غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام إلخ...

لقد كان من حكمة المعلم الأكمل ﷺ أنه لم يترك أحداً إلا وأعطاه الهداية، ولكن لكل بحسب قربه من الإسلام، وفهمه له ورغبته فيه، وهيمته في العمل، فأعطى الصغير ما يناسبه، وأعطى الأعرابي ما يلزمه، وأعطى حديث العهد بالإسلام ما يدعم موقفه، وزود المرأة بما يخصها، وخاطب المزارع على قدر خبرته.

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ، وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ، وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا، أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا^(٢).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الْأَمْوَالِ بِالدرَجَاتِ الْعُلَا وَالتَّعْيِيمِ الْمُقِيمِ: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحْجُونَ بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ،

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٤٦٥، ومسلم برقم: ٢١٢١.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٥.

وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ. قَالَ: «أَلَا أُحَدِّثُكُمْ إِنِ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِ، إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ؟ تُسَبِّحُونَ وَتُحَمِّدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ».

فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا، فَقَالَ بَعْضُنَا: نُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنُحَمِّدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «تَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلُّهُنَّ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ»^(١).

إنه لفرق واضح بين الصنفين من الناس في الحديثين، الأول يسأل عن الحد الأدنى الذي ينجيه عند الله تعالى، وأما الآخرون فهم يبحثون بمراقبة شديدة عن إسراع إخوتهم وسبقهم لهم إلى الله تعالى، لذلك كانت الحكمة النبوية أن يختلف خطابه بين الرجل الأول والآخريين من الناس.

إنها الحكمة في الدعوة ورب الكعبة، هل الداعية الموفق من يعطي الحجم الدعوي للرجل الذي أقسم ألا يزيد، بحجم الذي يدقق وراء أخيه ليصل إلى عمل جديد يقربه من الله؟



(١) أخرجه البخاري برقم: ٨٤٣، ومسلم برقم: ٥٩٥.

القاعدة العشرون

٢٠. ضع مقدمة لائقة لنصيحتك إن
احتاج الأمر

هنا ملحوظة مهمة، وهي أن الغاية من المقدمة الدخول المرن إلى القلب، فحَذَارِ حَذَارٍ أن تصبح المقدمة سبباً لصدّه وإعراضه، إذ الواجب أن تشتمل المقدمة على ذكر بعض مآثره، أو أنك تحبه في الله، وتريد نصحه، لا أن تكون في تسويق نفسك، والتعريف بمنجزاتك، ومناصبك السابقة والحالية، وسرد مناقبك.

وإن كان لا حرج من التعريض بهذا إن ترجحت المصلحة حسب الاجتهاد، كأن تذكر تخصصك الشرعي الدقيق في المسألة التي تود الكلام فيها، مع الحذر الشديد من الإطناب الممل، أو الأسلوب المفسد، فما أجملها إن خرجت بلسان التحدث بنعم الله تعالى، لا الكبر ولا التعالي.

ومن أحسن المقدمات ما كان في الشناء على صفة إيجابية بمن تخاطبه، فالنفوس مجبولة على حب من يمدحها، ويثني على نجاحها.

ثم إن الدعوة على ثلاثة أضرب:

دعوة فردية، ودعوة لجماعة خاصة، ودعوة لجماعة عامة.

أما الدعوة الفردية: فربما يأتي الداعي بمقدمة مما يلين القلب، كالتصريح بالحب في الله، ولكن الأصل أن يبتدئ الكلام مباشرة بدون

مقدمة، كما قال أنس رضي الله عنه: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ». فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطْعَمَ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

أجل لم يأت الحبيب ﷺ بأي مقدمة حسب الظاهر، وإن كنت أجزم أن حسن معاملة النبي ﷺ له خلال فترة الخدمة، وقدم الحبيب ﷺ إليه ليعوده وهو الصغير، وهو الخادم، والمخالف في الدين، كل هذا مقدمات كانت سبباً كبيراً في استجابة الأب ثم الولد.

وبنحوها جاء التوجيه لأسامة بن زيد رضي الله عنه دون مقدمة ولا تمهيد، كما ورد عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالَ: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^(٢).

وقد تقدم خبر المسيء صلاته^(٣)، وخبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في نقله كلام رجل من الأنصار في قسمة الغنائم^(٤)، ولم تدع المناسبة لأي توطئة

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٣٥٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٧٥، ومسلم برقم: ١٦٩٠.

(٣) ص ٧٩.

(٤) ص ٧٩.

بين يدي الحديث، لذا جاءت النصيحة مجردة منهما.

وأما الدعوة لجماعة محصورين معروفين، كأن يكون للداعي عصابة من إخوته الذين يحضرون عنده: فهذا أشبه بدعوة المنفرد، وهو أن الأصل عدم التقديم بمقدمة، وربما احتاج إلى مقدمة يسيرة.

ويلحق بالجماعة المحصورة كلام الداعية مع أمثاله من الدعاة، فلا يحسن التطويل بما هو مفهوم معروف بينهم، وما لا يخفى على الحاضرين:

وَإِذَا الْمُحَاطَبُ كَانَ مِثْلَكَ عَالِمًا أَغْنَى قَصِيرُ الْقَوْلِ عَنْ تَطْوِيلِهِ

وأما الدعوة الجماعية: فإن الغالب تعين الإتيان بالمقدمة فيها، ليصل كلام الداعي إلى القلوب من غير استغراب ولا استنكار، وربما لا يحتاج لشيء يقدم فيه، وهذا يرجع إلى تقديره.

ولا بد لي قبل إنهاء هذه القاعدة من أن أشيد بالمقدمة الجذابة القصيرة، فما أحسنها ولا ألطفها، وكم تؤدي من رسائل، وكم تعين على شد قلب السامع، وهذا فن طريف، - أعني: فن جذب الانتباه - وهو أن يتكلم الخطيب والمتكلم بكلام يشد أنظار السامعين، وقد يبدو للوهلة الأولى مستغرباً، غير متوقع، وسرعان ما يزول الإشكال والعجب.



القاعدة الحادية والعشرون

٢١. إياك أن تطيل في المقدمة مهما كانت

الظروف

الأمر الذي لا يقبل الجدل، وليس فيه خلاف، هو أن المقدمة إن وجدت فإنه يشترط فيها ألا تكون طويلة، فالنبي ﷺ لم يطل بأي مقدمة عندما استعملها.

وما هو المتوقع إذا جاءت النصيحة بعد مقدمة ضيعت الناس من طولها، وأفقدت الحديث أهميته، وجعل فكر الناس يشرق ويغرب، لا يدري السامع ما الذي يريده المتكلم.

وإليك هذا المثال الذي جاءت مقدمة كلام النبي ﷺ لحل بعض المشكلات: فقد قال أبو حميد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسَدٍ، يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْأَتَيْبَةِ عَلَى صَدَقَةٍ، فَلَمَّا قَدِمَ، قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبَعْتُهُ فَيَأْتِي، يَقُولُ: هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرُ أَيُّهُمَا لَهُ أَمْ لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُورٌ، أَوْ شَاةٌ تَبْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتِي إِبْطِيهِ، أَلَا هَلْ بَلَغَتْ ثَلَاثًا»^(١).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧١٧٤ - واللفظ له - ومسلم برقم: ١٨٣٢، والرغاء: صوت الإبل، والخور: صوت البقر، واليعار: صوت العنز.

لاحظ أن النبي ﷺ أتى بالمقدمة، وهي وصف الحال للصحابة، بحيث عرف من لم يكن لديه معرفة ما السبب، ولو أنه تم الاقتصار على الموعظة فقط، لما كانت الدعوة تامة، فمثلاً: لو كان ابتداء الكلام: «والذي نفسي بيده لا يأتي الإنسان بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته»... لكان الكلام مبتوراً، ولقد دعت الحاجة للمقدمة ببيان السبب، ولم تدع الحاجة لبيان اسم الشخص المرسل، فلذا لم يسمه، وإن كان بعض الروايات قد جاء التصريح باسمه من قبل الصحابي الراوي.

روى ابن حبان (ت: ٣٥٤ هـ) رحمه الله في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ، فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَعُيَيْنَةَ بْنَ بَدْرِ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَذَكَرَ نَفَرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُعْطِي غَنَائِمَنَا قَوْمًا تَقْطُرُ سُيُوفُنَا مِنْ دِمَائِهِمْ، أَوْ تَقْطُرُ دِمَاؤُهُمْ فِي سُيُوفِنَا، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَجَمَعَ الْأَنْصَارَ، فَقَالَ: «هَلْ فِيكُمْ غَيْرُكُمْ؟»، فَقَالُوا: لَا، غَيْرُ ابْنِ أُخْتِنَا، قَالَ: «ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَمَا تَرْغَبُونَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا أَوْ بِالشَّاءِ وَالْإِبِلِ، وَتَذْهَبُونَ بِمُحَمَّدٍ إِلَى دِيَارِكُمْ؟»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَخَذَ النَّاسُ وَادِيًا، وَأَخَذَ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَأَخَذْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، الْأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْيَتِي، وَلَوْلَا الْهَجْرَةُ، لَكُنْتُ امْرَأًا مِنَ الْأَنْصَارِ»^(١).

وفي رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: نصح بعض الصحابة.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٣٦٩٩٧، وابن حبان برقم: ٧٢٦٨ واللفظ له، وقال محققه: إسناده صحيح.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أُعْطِيَ مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ، وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عَظَمًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: «فَإَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، وَمَا أَنَا؟ قَالَ: «فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ» قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ، فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَزَدَهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ، فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، مَا قَالَهُ بَلَعْتَنِي عَنْكُمْ وَجِدَّةً وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلْفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟»، قَالُوا: بَلَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ وَأَفْضَلُ، قَالَ: «أَلَا نُحِبُّونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟»، قَالُوا: وَبِمَاذَا نُحِبُّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ، قَالَ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصَدَقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكْذِبًا فَصَدَقْنَاكَ، وَنَحْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَأَوْيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ، أَوْجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسَلِّمُوا، وَوَكَّلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،

لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ
الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ،
وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ»^(١).

ما أليق وما أجمل وما أحكم هذه المقدمة التي قدم بها النبي ﷺ بين
يدي كلامه، ذكرهم فيها بفضل الله ورسوله عليهم بالهداية، ولما سكتوا لقنهم
حجة ليستدلوا بها، ثم جاء دور النصيحة، وإزالة الشبهة.

ويا له من أسلوب طالما استخدمه النبي ﷺ، بل تفنن فيه، فخاطب
العقل والقلب قبل السمع، وهاك مثالاً واضحاً عندما أراد أن يدعو قومه
للإسلام.

وقد مر^(٢) حديث عرض الإسلام على كفار قريش، وفيه أن النبي ﷺ
سألهم كيف نظرهم لنفسه؟ وأجابوه ما جربنا عليك كذباً، أجل؛ في مثل هذه
الحالة لا حرج أن تذكّر الذي أمامك ببعض ما يكتنه لك في قلبه، أو ما تجد
نفسك أنك تحسنه، كما قال سيدنا يوسف للملك: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ
الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، وهذا له اختلاف جذري عن
الجلوس أمام شخص، وشحن الحديث عن آثارك ومآثرك ومناصبك، حتى
يأخذ الممل، ويسأم من الكلام عن ترويح نفسك وسرد حسناتها، والفرق
بينهما واضح.

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم: ١١٧٣٠، والحادثة في الصحيحين بألفاظ متقاربة والروايات
يكمل بعضها بعضاً، وقد اخترت هذه الرواية لكونها جمعت الكثير، ومن أراد الاستزادة
فليرجع إلى «البداية والنهاية» لابن كثير ٤: ٤١١.

(٢) ص ٦٨.

القاعدة الثانية والعشرون

٢٢. راع شروط المقدمة وإلا انقلبت ضرراً

للمقدمة شروط عدة، إن لم تراعى فإنها قد تنقلب عكساً، أذكر منها:

- أ - احذر أن تطيل المقدمة - وقد تقدم آنفاً الكلام عليها -
- ب - احذر أن تصبح المقدمة سبباً للدخول إلى أسرار الناس.
- ت - احذر أن تنقلب المقدمة إلى تحقيق أمني يتوجس منه المدعو.
- ث - احذر أن تكون المقدمة مما يزعج السامع أو يذكره بنقائص قومه وأهل خاصته.
- ج - احذر أن تتعرض لمقدمتك لأمر ومباحث أهم عند السامعين من موضوعك الذي تتصدى له.
- أجل؛ احذر أن تعطي المقدمة عكس النتيجة التي جاءت من أجلها، لا والله، لا خير في مقدمة تصب على أذن السامع باباً من فولاذ يحجب سماع أي حرف منك.
- وقف خطيب ليرشد الناس في حفل ديني، فسأل الناس أتحبون الله؟ والناس واجمون ينظرون إليه!

فكرر السؤال وهو متعجب، ثم قال لهم: أجيبيوني، هل تحبون الله؟

فقال الحاضرون بصوت يعلوه الفخر والاعتزاز: نعم....

فخبط عليهم حجرًا ثقیلاً من كلامه الفج قائلًا: كذابون! لو كنتم تحبون الله تعالى لما رأينا نساءكم يخرجن في الشارع كالمومسات!!
ثم شرع في سؤال صنو السؤال الأول في الإخفاق والعجز والفجاجة:
هل تحبون النبي ﷺ؟

لكن الناس في هذه المرة أشد اندهاشًا وسكوًا، أعينهم تدور جاحظة للأمام، وما استطاع لسان أحدهم أن يأذن لحرف بالهَرَب من جوفه، فكرر السؤال بنبرة أعلى:

هل تحبون النبي ﷺ أم لا؟

فتحرّكت شفاههم بالصلاة على الحبيب ﷺ، ومنهم من علا صوته قائلًا: روجي فداه بأبي وأمي هو ﷺ.

فكانت راجماته حاضرة ليلقيها عليهم: كذابون والله! والله لو كنتم تحبون الرسول ﷺ لما رأينا الغش والخداع في البيع والشراء.

أجل يا أيها القراء! صدقوني هكذا كان أسلوبه في مقدمة الدعوة، يمينًا بالله الكريم، لو قرأ هذا الرجل - بعد هذه المقدمة العقيم - القرآن الذي تتصدع الجبال منه خشية لما أفيد من الحاضرين أحد إلا القليل النادر، ذلك لأن القلوب قد أغلقت، ولفها من حولها حواجز سميكة تمنع دخول أي توجيه أو نصيح، أو كلام معسول، فضلًا عن غيره.

وقس عليها المقدمة التي تتدخل بأسرار الناس، وعورات البيوت، ونقائص القبيلة والأهل والأولاد ومن يلوذ بالسامع، أو التي تتحد مع

التحقيق الأمني في السلوك والصفة...

لعمركم! لا أشك قيد أنملة أن إلقاء الكلام بدون مقدمة - وقت
الضرورة لوجودها - خير من تقديم عليل سقيم يسقم الروح، ويمرض الفكر.



القاعدة الثالثة والعشرون

٢٣. النصيحة بغير فضيحة

أخطأ خطيب الجمعة بذكر حديث موضوع على المنبر، فقام أحد المصلين وهو يدوي بكلام يسمعه من قرب منه دون البعيد، ويداه تطيشان يمينة ويسرة، وحماليق^(١) عينيه تدور كأنه مجنون، يحمحم وينكر الحديث الموضوع، وتساءل الناس بينهم ماذا يريد هذا الرجل، وأعلموا بعضهم بمراده، وانفلق صف المصلين قسمين، ثم تشعب أقساماً، فمن مؤيد للخطيب يقول: شيخنا أعلم من هذا النكرة، وثان يقول: ما كان ينبغي للشيخ ذكر الكذب على رسول الله ﷺ على المنبر، وكان ينبغي له التحقق قبل التورط، وجزى الله هذا المنكر خيراً، فلولاه لم نعرف كذب الحديث، وآخر يقول: متى يتفق العلماء ونرتاح من اختلافهم.

صدقوني يا سادة: أنه كان بوسع هذا الرجل أن يقترب من المحراب بدل الخروج من المسجد، وأن يكلم الخطيب بعد الخطبة وقبل الصلاة بدلاً من كلام الناس، ولو أنه أهدى للخطيب هذا العيب لتدارك الخطيب أمر نفسه، ولئن كان الخطيب ممن لا يقبل النصيح فمن باب الأولى ألا يقبل التراجع بهذه الطريقة العقيم السقيمة، التي فرقت المسلمين ومزقت الكلمة داخل المسجد الواحد، وشككت بعض المصلين بمدى علم الشيخ، وربما توسعت الدائرة عند أحدهم فشك في جميع العلماء.

(١) الحماليق جمع الحِمْلَاق والحُمْلُوق واحد، وهو باطن الجفن. انظر: جمهرة اللغة ٢: ١١٤٣.

هذه الفضيحة لها ارتباط مَضْفُورٌ بأمراض القلوب، فغالبًا ما ترتبط بمرض في القلب، إما لإظهار عوار المنصوح، وإما لإبراز علم من ينصح، وعلاج هذا الأمر: أن يستحضر المتكلم الغاية من النصيحة، فإذا كانت لإرشاد المقابل له، فإنه سيلجأ إلى إخفاء النصيحة، وإن رأى نفسه أنه قد امتزج في الأمر شيء من أدران النفس، بادر إلى إصلاحه قبل الهلاك.

جَاءَ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: شَكَأَ أَهْلُ الْكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَزَلَهُ وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَارًا، فَشَكُّوا حَتَّى ذَكَّرُوا أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تُحْسِنُ تُصَلِّي؟ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: أَمَّا أَنَا، وَاللَّهِ فَإِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي بِهِمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أَصَلِّي صَلَاةَ الْعِشَاءِ، فَأَرْكُدُ فِي الْأَوَّلِينَ، وَأُخَفِّ فِي الْآخِرِينَ. قَالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ. فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا، أَوْ رَجَالًا، إِلَى الْكُوفَةِ فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ، وَلَمْ يَدْعُ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ، وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبَّسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ، يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قَالَ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلَا يَفْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلَا يَعْدِلُ فِي الْقَضِيَّةِ، قَالَ سَعْدٌ: أَمَّا وَاللَّهِ لَأَدْعُونَ بِثَلَاثٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا، قَامَ رِيَاءٌ وَسُمْعَةٌ، فَأُطِلَ عُمَرُ، وَأُطِلَ فَقْرُهُ، وَعَرَّضَهُ بِالْفِتَنِ. وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الْكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ^(١).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٥٥، ومسلم برقم: ٤٥٣.

هذا مثال صارخ لمن قام فضيحة لا نصيحة، ومقصده التشهير لا التعمير، بخلاف الموقف النبوي الذي جاء في بعض روايات قصة قسم الغنائم التي مر ذكرها أن النبي ﷺ تعمد أن نصح الأنصار دون حضور أحد، وقد تقدم في الحديث قول الصحابي: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ، فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَزَدَهُمْ^(١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَنْصَارَ، فَقَالَ: «أَفِيكُمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِكُمْ؟»، فَقَالُوا: لَا إِلَّا ابْنُ أُخْتٍ لَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ ابْنَ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ»^(٢).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَابِ بَيْتٍ فِيهِ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ وَأَخَذَ بَعْضَادَتِي الْبَابَ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ فِي الْبَيْتِ إِلَّا قُرَيْشِي؟»، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، غَيْرُ فُلَانِ ابْنِ أُخْتِنَا، فَقَالَ: «ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ»، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ مَا دَامُوا إِذَا اسْتَرْجَمُوا رَجَمُوا، وَإِذَا حَكَمُوا عَدَلُوا، وَإِذَا قَسَمُوا أَقْسَطُوا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ»^(٣).

وهذا كله من حرص الرسول الله ﷺ على النصيحة بغير فضيحة.

رحم الله من قال:

تَعَمَّدَنِي النَّصِيحَةَ فِي انْفِرَادٍ وَجَنَّبَنِي النَّصِيحَةَ فِي الْجَمَاعَةِ

(١) ص ١٠٩.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٥٢٨، ومسلم برقم: ١٠٦٠.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده برقم: ١٩٥٤١، والحديث صححه محققو المسند.

فَإِنَّ التُّصَحَّ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ مِنْ التَّوْبِيخِ لَا أَرْضَى اسْتِمَاعَهُ
وَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ قَوْلِي فَلَا تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُعْطِ طَاعَهُ



القاعدة الرابعة والعشرون

٢٤. الحرص على النصح لا الحرص على الانتقاد

ظهر أحد العلماء السوريين، وكان قد أوتي شيئاً من العلم، مع اللد و الخصومة، وإظهار التمسك السنة مع جنوح وتشنج، دون مراعاة الأصلح للدعوة، وكان يسوق ويتكلم كثيراً في مسائل الخلاف: كالتوسل وغيره، مع الحفاظ الشديد والدعوة للتحرر من المذاهب الفقهية، عندها نفر منه عامة العلماء، وتحفظ عليه جل الفقهاء والدعاة، وساءت سمعته بين الناس عموماً، فبلغ الأمر أحد المسؤولين الكبار الذين يعملون في سلك الإفتاء والأوقاف.

حدثني شيخنا الشيخ عبد الوهاب بن عبد السلام طويلة (ت: ١٤٤١ هـ) رحمه الله عن هذا الموقف قائلاً: أرسل مسؤول الأوقاف لمفتي حلب الشيخ محمد بلنكو (ت: ١٤١٢ هـ) رحمه الله يطلب منه أن يلتقي علماء حلب مع هذا الشيخ ويتناظروا في المسائل التي يطرحها، وفعلاً تم اللقاء، فأول ما جلس تم طرح مسألة التوسل التي يدندن حولها الشيخ كثيراً، فقال له الشيوخ: ماذا تقول فيها؟ فأجابهم: أقول فيها ما قال أبو حنيفة! قالوا: وما قول الإمام أبي حنيفة فيها؟ فقال لهم: سبحان الله! حنفيون ولا تعلمون ما قال أبو حنيفة؟ ثم تابع كلامه لأحد الجالسين قائلاً: ناولني الكتاب للقُدوري، فابرى له أحد العلماء الحضور قائلاً: أنت لا تعرف ضبط اسم القُدوري، وتلفظها خطأ، ثم أنت تعترض على من يقول بالتوسل، وتسخر من الحنفية؟ ثم انفض المجلس دون جدوى.

قال لي شيخنا: لقد بدا عقب اللقاء أن المقصود لكلا الطرفين فضح الآخر وفقاً عينه، ولم تكن النوايا - حسب ما بدا من كليهما - الوصول إلى المسائل المختلف فيها لجمع كلمة المسلمين.

النية تختلط هنا بين الحرص على نصح الناس، وبين الحرص على الانتقاد، وأسباب الحرص على الانتقاد كثيرة كإظهار العلم، أو التقليل من الذي يوجه له النصح، أو غير ذلك، لكن من الأمور التي تميز النصح من الانتقاد أنه عندما ترى شخصاً يَبِّنَ وأُرشدَ مخطئاً، وحرص آخر على إعادة الإرشاد وتكرار النصيحة لغير سبب مقنع، أو عندما تجد دعوتك تصل من خلال رسالة قصيرة، وتصرّ على المواجهة، أو يستطيع شخص أن يوصل الرسالة من طريق غير مباشر، فيصرّ على المصارحة.

وأهم مفرق بين النيتين مراجعة عمل القلب، مع المقارنة بالظاهر، والنظر إلى الهدف، فإذا ادعيتُ أن هدفي إيصالُ المعلومة، وفي الظاهر قام بها غيري على وجهها الصحيح، فالنتيجة المحتملة هي الإمساك عن إعادة النصح، لأنه غالباً ما يكون الحرص هنا على الانتقاد.

ومن جميل علاج النبي ﷺ للأمراض إذا فشلت في الأمة أو خاف انتشارها أنه يعظ على المنبر بذكر الداء والدواء دون التعرض للأسماء، لأن الغاية وصول النفع، ولا غاية سواها: وقد مر حديث المرأة المخزومية لما سرقت..^(١)

وفي حوادث عدة أخبر النبي ﷺ أخطاء حدثت فعلم الناس بقوله: ما

(١) مرض ١٠٥.

بال أقوام، منها في الحج لما بلغ النَّبِيُّ ﷺ أمرُ فقامَ خطيبًا، فقال: «بَلَّغْنِي أَنَّ أَقْوَامًا يَقُولُونَ كَذًا وَكَذًا، وَاللَّهِ لَا نَا أَبْرُ وَأَتَقَى لِلَّهِ مِنْهُمْ...»^(١).

لقد استعمل الحبيب ﷺ أسلوب إظهار النصيحة دون إظهار الشخص المراد بالنصح، لأنه لم يكن القصد أبدًا هو الانتقاد، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَتْهَا بَرِيرَةُ تَسْأَلُهَا فِي كِتَابَتِهَا فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتَ أُعْطِيتُ أَهْلَكَ، وَيَكُونُ الْوَلَاءُ لِي، وَقَالَ أَهْلُهَا: إِنْ شِئْتَ أُعْطِيتَ مَا بَقِيَ. فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَكَرْتُهُ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «ابْتَاعِيهَا، فَأَعْتِقِيهَا، فَإِنَّ الْوَلَاءَ لِمَنْ أَعْتَقَ». ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا، لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، مَنْ اشْتَرَطَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ، وَإِنْ اشْتَرَطَ مِثْلَهُ مَرَّةً»^(٢).

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: صَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا تَرَحَّصَ، وَتَزَرَّعَ عَنْهُ قَوْمٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَزَرَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»^(٣).

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السَّرِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللَّهُ، وَأَتَنَّى عَلَيْهِ، فَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذًا وَكَذًا، لَكِنِّي أَصْلِي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ

(١) الحديث متفق عليه وهذا لفظ البخاري برقم: ٢٥٥٠.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٥٦، ومسلم برقم: ١٠٧٥.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٧٣٠١، ومسلم برقم: ٢٣٥٦.

عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

وجِزْص النبي ﷺ على النصيحة بهذا الطريقة هي رسالة واضحة قاطعة أنه لا يريد هدم المخطئ ولا انتقاده، ولكنه حرص على هدم الخطأ وإزالته، فلذا عمم النصيحة على الملائم ولم ينبه على اسم المخطئ.

ومما يدخل تحت هذه القاعدة: النصح عن طريق شخص يؤثر في المنصوح كثيراً، كما جاء عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا رَأَى رُؤْيَا فَصَّهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا أَفْصَهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَكُنْتُ شَابًّا أَغْرَبَ وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَرَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبُرِّ وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ كَقَرْنَيْ الْبُرِّ، وَإِذَا فِيهَا نَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ فَجَعَلْتُ أَقُولُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ فَلَقِيَهُمَا مَلَكٌ آخَرُ، فَقَالَ لِي: لَنْ تُرَاعَ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ فَقَصَصْتُهَا حَفْصَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ». فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا^(٢).

وبعض الأمثلة في هذه القاعدة تتداخل وتناسب القاعدة التي قبلها، والمبدأ واحد، وهو الحرص على النصح لا على الانتقاد ولا الفضيحة.



(١) الحديث متفق عليه عند البخاري ومسلم، وهذا لفظ مسلم برقم: ١٤٠١، وأما رواية البخاري برقم: ٥٠٦٣، فإنها تنص على أن النبي ﷺ إنما كلم النفر الثلاثة القائلين لهذا الكلام.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٧٣٩، ومسلم برقم: ٢٤٨١.

القاعدة الخامسة والعشرون

٢٥. البيان قبل الانتقاد

اقترب شخص من شاب يصافح فتاة ويقبلها في حديقة ببلد عربي معروف، فثارت غيرته، فجاءه وانهاه عليه بالسب وأقذع الألفاظ، وبعد تدخل القريب والبعيد ظهر أن الشاب من أبناء البلد، لكنه ولد في بلد غربي، من أب مسلم، وأم غربية أوربيّة، وقد عاش حياته كلها في بلد أمه، وهو بعيد عن تعاليم الإسلام، أجنبي عن حقيقة آدابه، وقل إن شئت: إنه أقرب إلى التربية الغربية من العربية، وبغير الإسلامية أعرف من الإسلامية.

ما قيمة نصح الناصح الأمين لهذا الشاب، قبل أن يبين للشاب حكم الله؟ أيجب له الانتقاد دون البيان أولاً؟

ربما يرى بعضنا أن هذه القاعدة بدئية، وينتقد النص عليها، والواقع أن الدعاة بأمس الحاجة للتنبيه عليها، ويظن بعضهم أن الأمر البدهي عنده هو بدهي عند كل الناس.

أضحكني شاب من أصدقائي وقد سأل آخر: ما دليل هذه المسألة؟ فأجابه: إجماع كل الناس على ذلك.

فقال له: أرجوك دعني من هذه الإجماع المدّعى في كثير من القضايا، ما إن غادرنا قريتنا إلى القرية المجاورة الأوسع إلا وقد غيرنا كثيراً من قناعاتنا، وما إن وصلنا وسط المدينة حتى أنكرنا نصف المعلوم عندنا، وظهر الخطأ في ثلث أعمالنا الباقية.

لا شك أن علينا أن نطرح البيان، ونبين حكم الله تعالى قبل أن ننتقد المخطئ، إذ إن هناك أحكاماً معروفة يقدر عقلنا أنها بدهية لا تحتاج إلى تنبيه، ولكن الواقع أثبت أن بعض البدهيات عند فلان هي غرائب عند آخر.

والأدلة في هذا وفيرة كبيرة من فعل النبي ﷺ وأصحابه الأكرمين.

عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتٍ فَقَالَ أَلْجُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَادِمِهِ: «أَخْرِجْ إِلَى هَذَا فَعَلَّمَهُ الْإِسْتِئْذَانَ، فَقُلْ لَهُ: قُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟» فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟ فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ^(١).

وقد تقدم خبر المسيء صلاته^(٢)، ولم يظهر في هذا الحديث أي شيء من العتاب أو الانتقاد أو التأنيب، لأن المتلقي جاهل بالحكم تماماً، فلجأ النبي ﷺ إلى البيان مباشرة بقوله: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ».

ولكن القاعدة ليست على إطلاقها، فعندك حالات تجزم فيها بتلاعب شخص، وقد ترى أن من الحكمة عدم تجاهل هذه الخطوة منه، فتلجأ مباشرة إلى الانتقاد، وتترك البيان.

كما رَوَى مُسْلِمٌ (ت: ٢٧١ هـ) رحمه الله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَتَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ:

(١) أخرجه أحمد برقم: ٢٣١٢٧، وأبو داود برقم: ٥١٧٧، واللفظ له، وقال محققو مسند أحمد:

«صحيح لغيره».

(٢) ص ٧٩.

«مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟»، قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيَ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ، فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

ومن طريف ما حصل معي أنني كنت أحاضر في دورة دعوية، ووصلت إلى هذه القاعدة وشرعت بشرحها، وأشرت إلى بعض الحاضرين بمثال أجزم أنه يعلمه، ولا يغيب حكمه عليه قائلًا: هب أنك وجدت كذا وكذا - وهو حرام - ومعروف عند الجميع أنه حرام، فالواجب عليك أيها الناصح أن تكون مبينًا حكم الله تعالى قبل أن تنتقد، إذا بالسؤال الصادم يأتي من وجه بريء من قبل الطالب نفسه: وهل حقيقة هذا الحكم حرام؟ أم أنه مثال وهمي؟ فضحكت وقلت له: ظننت نفسي أنني أتيت بحكم بديهي يعرفه كل العامة، لأضرب به المثل، فظهر لي أن طالب الدعوة نفسه لا يعرفه.



(١) أخرجه مسلم برقم: ١٠٤.

القاعدة السادسة والعشرون

٢٦. إظهار الحب للمنصوح والتواصل معه قبل الهجر في الله

بين الفينة والأخرى يجد الداعي في طريقه من أَعْمَلَ الهجر لإخوانه وسماه «الهجر في الله»، وهذا يكثر من قبل المتدينين للعصاة، مما أدى إلى زيادة الفجوة بين الملتزم وغير الملتزم.

مررت بجانب مطعم لرجل أعرفه، إذا به قد عرض على الجدار شاشة كبيرة وفيها من المجون ما يستحي منه ذوو الحياء، فغضب من بجاني وقال: أليس هذا محل فلان؟ قلت: بلى! فقال: والله يجب علينا وجوباً أن نهجر هذا وأن نقاطع المطعم. قلت: بل تجب علينا والله زيارته وتذكيره في الله، فإني ما علمته أنه يحب الله ورسوله، أأكون عوناً للشيطان على أخي؟

لقد لجأ هذا المتحمس إلى الهجر في الله قبل اللجوء إلى التقرب للعاصي وإبداء الحب في الله، والنصح في الله، وهنا استعمال لقاعدة الهجر في الله على غير وجهها، وغير مكانها.

والصحيح هو التعامل مع هذا العاصي بزيادة التقرب والتحب، والنصح والتوجيه على انفراد، من غير تشهير ولا وجود غريب، فإن تحققت منه العناد، فقد أدت نصحك الواجب، وفي هذه الحالة لا يجوز لك الهجر في الله.

وأحب ابتداء أن أبين الفرق بين الهجر وبين الابتعاد، أما الهجر فهو إظهار الغضب عند اللقاء، وتعمد ترك الكلام، وأما الابتعاد فإنه الحد من الخلطة، وتقليل اللقاء، ومحاولة التملص من اللقاء، أو طوله ما أمكن.

أما الهجر في الله: فلا يجوز إلا في حالة واحدة لا ثاني لها، وهي: أن يغلب على ظنك أن العاصي يرعوي عن غيه بهجرانك، كما في قصة توبة سيدنا كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورفيقه: مُرَارَةُ بْنُ الرَبِيعِ الْعَمَرِيُّ، وهلال بن أمية الواقفي، يقول كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرْتُ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكْنَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأُطَوِّفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أَصِلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأَسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَّفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ...^(١) وفي الحديث قصة طويلة في توبة الله تعالى على هؤلاء الثلاثة.

أجل؛ هذا هو الهجر الذي يعود بالمرء إلى السكة المرسومة بعد أن خرج منها.

أما إن غلب على الظن أن المهجور ستتسع له دائرة الراحة، ويتحلل من

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٤١٨، ومسلم برقم: ٧١٦.

المراقبة، أو تزيد الفجوة والهوة بينه وبين من هجره فإن الهجر غير جائز ولا مستساغ، لأنه إنما شرع للعلاج لا لزيادة البؤس والمرض.

كما يجوز لك الابتعاد إذا غلب على ظنك أنك تتأثر بعصيان العاصي سلبيًا بدلًا من أن يتأثر هو بدعوتك، ولكن الابتعاد ليس بهجر أبدًا، وهو يقتضي السلام والتحية والكلام عند اللقاء، أما الهجر: فهو ترك الكلام عند اللقاء وعدم السلام والزيارة.

قد يقال: أليس الله تعالى أمر بالهجر في قوله: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] أقول: بل هذا هو النهي عن كثرة الخلطة، لا الهجر بمعنى إذا مر ألا يسلم، وألا يتكلم، وأن يعرض عنه عند اللقاء، ويقول الإمام الرازي (ت: ٦٠٦ هـ) مبيّنًا المعنى: «وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطًا للناس أو مجانبًا عنهم، فإن خالطهم فلا بد له من المصابرة على إيذائهم وإيحاشهم، فإنه إن كان يطمع منهم في الخير والراحة لم يجد فيقع في الغموم والأحزان، فثبت أن من أراد مخالطةً مع الخلق فلا بد له من الصبر الكثير، فأما إن ترك المخالطة فذاك هو الهجر الجميل، فثبت أنه لا بد لكل إنسان من أحد هذين الأمرين، والهجر الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم في الأفعال مع المداراة والإغضاء وترك المكافأة، ونظيره: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعَظِّمْهُمْ﴾ [النساء: ٦٣]، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [التجم: ٢٩]»^(١).

فما أحوجنا إلى زيت الحب، الذي يطري العلاقة بين الأحباب، وما أحوجنا للتواصل في الله، قبل الهجر المؤدّب الزاجر.

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي ٣٠: ٦٨٩.

القاعدة السابعة والعشرون

٢٧. الدعاء لمن ترجو هدايته قبل الدعاء

عليه

من أجمل الخصال التي تُبرز رحمة الحبيب ﷺ أنه كان يدعو للضالين عن سبيل الهدى، ليهديهم الله تعالى سبل الهدى، كما في الصحيحين: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَدِمَ طَفِيلُ بْنُ عَمْرِو الدَّوْسِيُّ وَأَصْحَابُهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ هَلَكْتَ دَوْسٌ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأَتِ بِهِمْ»^(١).

ومثله حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أَدْعُو أُمَّيَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَاسْمَعْتَنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ، فَاتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمَّيَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأَبَى عَلَيَّ، فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَاسْمَعْتَنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ». فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَى الْبَابِ فَإِذَا هُوَ مُجَافٍ، فَسَمِعْتُ أُمَّيَ خَشَفَ قَدَمَيَّ، فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ. وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ. قَالَ: فَاعْتَسَلْتُ وَلَبِسْتُ دِرْعَهَا، وَعَجِلْتُ عَنْ خِمَارِهَا فَفَتَحَتِ الْبَابَ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ! قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ، قَدْ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٩٣٧، ومسلم برقم: ٢٥٢٤.

اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَىٰ أُمِّي هُرَيْرَةَ فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْرًا. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُحِبَّ بَنِيَّ أَنَا وَأُمِّي إِلَىٰ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُحِبَّهُمْ إِلَيْنَا! قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ عَبْدَكَ هَذَا - يَعْنِي: أَبَا هُرَيْرَةَ - وَأُمَّهُ إِلَىٰ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ». فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي وَلَا يَرَانِي إِلَّا أَحَبَّنِي ^(١).

إن الدعاء لمن ترجو هدايته هو الأصل الذي ينبغي ألا يعدل عنه، ومن استعمله وجد فوائده العجيبة، وهذا هو هدي النبي ﷺ كما تقدم.

نعم؛ إن هذا هو الأصل في شخصية الداعية، وهو أن يحرص على الدعاء للمخالفين في الدين والالتزام والتمسك، وأن لا يلجأ للدعاء عليهم إلا في أوقات مخصوصة قليلة محدودة، ولكن الدعاء على العادي المعادي الذي أبرز العداء ليس بدعاً من القول، فلقد كان من هدي النبي ﷺ أن يدعو على الكفار، كما ثبت عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَأُقَرِّبَنَّ صَلَاةَ النَّبِيِّ ﷺ. فَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقْنُتُ فِي الرَّكْعَةِ الْأُخْرَىٰ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ، وَصَلَاةِ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةِ الصُّبْحِ، بَعْدَ مَا يَقُولُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَيَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيَلْعَنُ الْكُفَّارَ ^(٢).

وفي رواية لهذا الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُو عَلَىٰ أَحَدٍ، أَوْ يَدْعُو لِأَحَدٍ، قَنَتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ، فَرَبَّمَا قَالَ، إِذَا قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ،

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٤٩١.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٧٩٧، ومسلم برقم: ٦٧٦.

وَسَلَّمَ بَنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَ،
وَأَجْعَلْهَا سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ»، يَجْهَرُ بِذَلِكَ، وَكَانَ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ فِي
صَلَاةِ الْفَجْرِ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا»، لِأَحْيَاءٍ مِنَ الْعَرَبِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ:
﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] الْآيَةَ^(١).

وفي الحديث الآنف ترى أن المصطفى ﷺ دعا على المجرمين منهم عقب
دعائه لمن كان يرجو هدايتهم، والحديث بهذا الترتيب يخط للمسلم خطأ بين
الدعاء للمدعو والدعاء عليه، فإنما يشرع الدعاء له إذ ترتجى هدايته، وأما
الدعاء عليه فعندما يستطير شره ويعظم عداؤه ويكثر ضره.

وفي رواية أخرى للحديث الآنف، جمع النبي ﷺ بين الدعاء للمؤمنين
والدعاء على الذين يصدون عن سبيل الله، فقد قَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضَعْفِينَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسَنِي
يُوسُفَ»^(٢).

ولكن لا بد من الحذر الشديد من إطلاق اللسان في الدعاء على
الناس، أجل: لقد أمرنا النبي ﷺ بالدعاء على بعض الأشخاص، كحديث: «مَنْ
سَمِعَ رَجُلًا يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ: لَا رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ
لَمْ تُبْنَ لِهَذَا»^(٣). ولكني أجزم أن الدعاء المذكور في الحديث إنما يقال في حق
من عرف الحكم، وأظهر العناد والمخالفة، لا لمن هو حديث عهد بجاهلية،
ولا لتائب يدخل المسجد من قريب.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٥٦٠، ومسلم برقم: ٦٧٥.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٣٨٦، ومسلم برقم: ٦٧٥.

(٣) أخرجه مسلم برقم: ٥٦٨.

وشرع أيضًا الدعاء على مجهول - أي: ليس بمعين - تحققت فيه صفات خطأ، كقوله ﷺ في حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَدْ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ عَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ»^(١).

ولا أعرف أصفى من قلوب النبيين الذين كانوا يرجون هداية الناس بقلوبهم، ويبرهنون على ذلك باختلاطهم بأجسادهم، ويصدق ذلك لسانهم، وهم يلتجئون إلى الله بالدعاء للناس بالهداية والرشاد.



(١) أخرجه أحمد برقم: ١٧٤٠٤، وابن حبان برقم: ٦٠٨٦، وحسنه محققو المسند.

والمقصود هنا تائم الجاهلية كما قال القسطلاني رحمه الله في «المواهب اللدنية» ٣: ٤٢٦: «التائم: جمع تميمة وهي خرزة أو قلادة تعلق في الرأس، كانوا في الجاهلية يعتقدون أن ذلك يدفع الآفات». وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث مادة: ودع: «الْوَدْعُ، بِالْفَتْحِ وَالسُّكُونِ: جَمْعٌ وَدْعَةٌ، وَهُوَ شَيْءٌ أَبْيَضٌ، يَجْلِبُ مِنَ الْبَحْرِ، يَعْلَقُ فِي حُلُوقِ الصَّبِيَّانِ وَغَيْرِهِمْ، وَإِنَّمَا نَهَى عَنْهَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلِقُونَهَا مَخَافَةَ الْعَيْنِ، وَقَوْلُهُ: «لَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ»: أَيُّ لَا جَعْلَهُ فِي وَدْعَةٍ وَسُكُونٍ».

القاعدة الثامنة والعشرون

٢٨. ضع مِغْنَاتِيْسًا^(١) لكلامك، واحذر أن
تخرجه جافاً

لقد نجح دعاة في زماننا نجاحاً رائعاً، منهم العلامة الشيخ علي الطنطاوي (ت: ١٤٢٠ هـ) رحمه الله تعالى، كان يخرج في التلفاز قديماً، يوم كان كثير من الدعاة يحرم التصوير، ولحديثه مِغْنَاتِيْس شديد الجذب، فمن أسباب جذبته للحديث أنه كان يتكلم باللغة اليسيرة، ويبتعد عن التعقير في اللغة، وهو الخبير الحاذق بطرق العربية وفنونها، ومن أسباب نجاحه أنه يوصل الدعوة من خلال القصة، فلقد سخر القصة لخدمة العلم وإيصال الهداية، ومن الأسباب: أسلوبه الأدبي السهل الممتنع، حيث أعطي قلمًا ولسانًا أدبيًا يصعب تقليده، ومن الأسباب وجود الطرفة والنكتة الجذابة في حديثه، ومنها ابتسامته ومرحه في الحديث، فمحياء يرسل إلى كل الحاضرين رسالة إجبار لقبول كلامه، في أمور أخرى كانت السبب في نجاحه، عليه رحمت الله ومغفرته وبركاته.

وفي الدعاة المعاصرين ناجحون آخرون، منهم من يخلط في دعوته بين الاكتشافات العلمية، والتأصيل من الكتاب والسنة، ومنهم من يجيد الاستشهاد بالشعر في ثنايا كلامه، ومنهم الذي يشرق وجهه بالابتسامة كأنه

(١) مِغْنَاتِيْس: كإسماعيل في توالي الحركات والسكنات، وفي «المعجم الوسيط» - عقب مادة: مغغ - المغناتيس: حجر يجذب الإبر ونحوها من خفيف الحديد خاصة به، واستعمالها هنا مجازي، أي: ضع مادة جاذبة في حديثك.

فَلَقَّةُ قمر، وآخر أعطي لين الخطاب بحيث يدخل إلى قلب كل مستمع ومُتَلَقٍّ...

مما سبق يفهم أن الجاذبية تكون أحياناً بالابتسامة وطلاقة الوجه، أو ببيت من الشعر، أو بتنميق العبارة، ويكون بطريقة سؤال، أو معلومة جديدة، أو ضرب المثل، أو ذكر القصص، وله صور ووجوه عديدة كثيرة.

ولو حاولت أن تجمع ما ورد عن النبي ﷺ من أمور في أساليب شدّه للحديث لرأيت العجب العجائب في هذا الباب، فعلى سبيل المثال:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ»^(١).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلِ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخِ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»^(٢).

وهاتان صورتان من صور المغنطيس في الكلام، الأولى: هي طريقة

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦١، ومسلم برقم: ٢٨١٢.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٥٥٣٤، ومسلم برقم: ٢٦٣١.

وللعلامة المحدث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى كتاب مفيد في هذا الباب اسمه: «الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم».

التحفيز في السؤال، والبحث عن الإجابة، والأخرى: تشبيه الإنسان النافع بمثال صالح، والإنسان السيئ بمثال يلائمه.

وأختم بمثال نبوي رائع صحَّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ يُقَالُ لَهُ زَاهِرُ بْنُ حَرَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ يُهْدِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ الْهَدِيَّةَ، فَيُجَهِّزُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَنَا، وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ»، قَالَ: فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَالرَّجُلُ لَا يُبْصِرُهُ، فَقَالَ: أَرْسَلَنِي، مَنْ هَذَا؟ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا عَرَفَ أَنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يُلْزِقُ ظَهْرَهُ بِصَدْرِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَشْتَرِي هَذَا الْعَبْدَ؟» فَقَالَ زَاهِرٌ: تَجِدُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ كَاسِدًا، قَالَ: «لَكِنَّكَ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ»، أَوْ قَالَ ﷺ: «بَلْ أَنْتَ عِنْدَ اللَّهِ غَالٍ»^(١).

وما أجمل المُلح والجاذبات إذا جاءت في مكانها، وضمن مسارها، وما أقبحها إذا زادت عن حدها.

ولا ريب أن الشعر من المُلح، ولكن الداعية يستعمله بقدر ما يخدم الدعوة، ولا يقلب الوعظ الإسلامي إلى جلسة شعرية.

وضرب المثال نافع للحديث، ولكن كثرة الأمثلة مشتتة للذهن، مبعثرة للفكرة، تقلل أثر الكلام إن خرجت عن حدها.

واللمسة الأدبية تشرك في قبول الفكرة، والابتسامة عنصر جذاب، وتنويع الأسلوب بين سؤال وخبر وخطاب والتفات كله حسن، ولكن التجاوز عن الحد المعقول يسبب سحب دسم الكلام الملقى على السامع، كما

(١) أخرجه ابن حبان برقم: ٥٧٩٠، والحديث صحيح.

قيل: «رب كلام يزيده الإطناب والتقرير غموضًا».

وعلاج هذا كله أن يجتهد الداعي بإحضار الجاذبية المحددة بمحدودها، وضمن إطارها، وحجمها النافع، وإلا انقلب الهدف، وصارت كالطعام الذي زادت النكهات والبهارات عليه حتى أفسدته.

وأختم ببعض مُلَح ابن الجوزي (ت: ٥٩٧ هـ) رحمه الله، فإنه كان يستعمل السجع في كلامه كثيرًا، ولقد كان مما قال: «من قنع طاب عَيْشُهُ، وَمَنْ طمع طال طَيْشُهُ»، ووعظ الخليفة فقال: «يا أمير المؤمنين، إن تكلمتُ خفت منك، وإن سكْتُ خِفتُ عليك، فأنا أقدمُ خوفي عليك على خوفي منك، إنَّ قول القائل: «اتَّقِ اللَّهَ» خيرٌ من قول القائل: «أنتم أهل بيتٍ مغفورٌ لكم»^(١).

ومن كلام الأديب أبي الفتح البستي (ت: ٤٠٠ هـ) رحمه الله: «من أصلح فاسده، أرغم حاسده». «من أطاع غضبه، أضاع أدبه». «عادات السادات، سادات العادات». «من سعادة جدّك، وقوفك عند حدّك». «الخبية، تهتك الهيبة». «أجهل الناس من كان للإخوان مذلاً، وعلى السلطان مدلاً». «إذا بقي ما قاتك، فلا تأس على ما فاتك». «المنيّة، تضحك من الأمنيّة». «حدّ العفاف، الرضا بالكفاف». «ظلّ الجفاء، يكسف شمس الصفاء». «المعاشرة ترك المعاصرة»^(٢).

فمثل هذه المُلح إذا ظهرت في الكلام كانت كالملح للأكل، إذا كثّر أفسد بكثيره الكثير، وإذا جاء بقدره أصلح الطعم والطعام.

(١) «تاريخ الإسلام» ١٢: ١١٠٠ ترجمة رقم: ٣٧٥.

(٢) «تاريخ الإسلام» للذهبي ٩: ٣٢، «تاريخ الأدب العربي» لشوقي ضيف ٥: ٦٣٢.

القاعدة التاسعة والعشرون

٢٩. بَيْنَ حُكْمِ اللَّهِ لِلْمَدْعُوِّ، لَكِنْ لَا
تُشْعِرُ الْمَدْعُوَّ أَنَّهُ سَيَحِلُّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ

هذه القاعدة تتعلق بالذوقيات العالية إلى جانب تعلقها بالنجاح الدعوي، وكم أحدث فَقْدُ أمرٍ من اللباقة خرابَ محرابٍ عظيم وصرح شامخ. إن ذوق الطرح وورقي الخطاب إذا أردتُ أن أحتَّ تارك الصلاة أن أقول: عليك بالصلاة فإنها تضيء حياتك، وتجلب لك السعادة، وتأتيك بالخير العميم، وكذا وكذا... واللَّهُ تعالى أعد سقر لمن لم يك من المصلين - وحاشاك أن تكون منهم -، فها هم أولاء أصحاب اليمين يسألون المجرمين الذين دخلوا النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَنْتَنَا الْيَقِينُ﴾ [المدر: ٤٢ - ٤٧].

ولكن ليس من الذوق ولا الحكمة الدعوية أن أقول له: ستكون في النار، ويسلخ جلدك فيها، وتدخل سقر، وينفذ فيك كذا وكذا...

وما أجمل ذوق الحبيب ﷺ لما نصح أصحابه دون أن يشعرهم بأن العقوبة ستحل عليهم، قَالَ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تَخَلَّفَ عَنَّا النَّبِيُّ ﷺ فِي سَفَرَةٍ سَافَرْنَاهَا، فَأَدْرَكَنَا وَقَدْ أَرَهَقْتَنَا الصَّلَاةُ وَخُنْ نَتَوَضَّأُ، فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَىٰ أَرْجُلِنَا، فَنَادَىٰ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»

مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا^(١).

ولم يخاطبهم المصطفى ﷺ بالخطاب المباشر، ولم يقل لهم: ويل لكم، ولم يقل ستدخلون النار، ولم يقل: ستحرق أقدامكم النار، ولم يخاطب أحداً بعينه، ولا الكل مشمولين بكلام واحد.

ومما يشبه هذه الصورة أن تُعلمه بالخطأ وفداحته، دون أن تبين له العقوبة أبداً، ومثالها: عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتْنِي رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ»، مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسَبُ فَلَانًا، وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَيِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا، أَحْسَبُهُ كَذًا وَكَذًا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ»^(٢).

ومن هذا السياق جاء الأدب القرآني مع الذين خلفوا، حيث ابتدأ الله تعالى بالتوبة على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار، ثم ألحقها بالتوبة عليهم، وذلك بقوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨].

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٠، ومسلم برقم: ٢٤٧٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢٦٦٢، ومسلم برقم: ٣٠٠٠.

أجل؛ جاءت بعض العبارات القرآنية موجهة بشكل مباشر وتخطب القوم بخطاب صريح بأنهم سينفذ فيهم العذاب، منها قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، لكن هذا المنهج جاء على صفات:

الأولى: أنها ليست في شخص بعينه، مع التصريح باسمه.

والثانية: أنه خطاب من الله، وليس للداعي استعماله من تلقاء نفسه.

والأخرى: أنها في الذين صدوا عن الدعوة وحاربوها.

ولا يسمح قط استعمال هذا المنهج مع منحرف عن شرع الله بعينه، وليس هو بمحارب، والمخاطب بشر ليس بيده جنة ولا نار.

ولا عجب أبدًا أن تجد الإعراض والرد على الداعي من قبل العصاة عند تجاوزه الحدود التي سمح الله له بها، فالذي يجب التفريق فيه بين: الله وكلني أن أنقل عنه، ولكن سوء الأدب مع الله ومع عباده أن أشعر الناس بأنني من منفذي الحكم والعذاب، وأني متصرف بعقابهم.

أجل؛ التحمُّس الزائد في طريقة طرح الخطاب أحيانًا، يشعر الذي أمامك كأنك متصرف، وهذا الأسلوب يختلف عن أسلوب الداعية الناقل عن الله ما يريده الله، ضمن الحدود التي خطَّها الله له.



القاعدة الثلاثون

٣٠. أنصح ولكن قد يكون المنصوح
عند الله خيراً مني

رجل من النشطاء في الدعوة يدعو العصاة إلى الله، وإذا ما خلا بينه وبين الناس في أحاديثه الخاصة ندت منه كلمات يصرح للسامع فيها أن العصاة على حال سيئ، وأنه أحسن حالاً منهم، ويقول: متى يرتقي هؤلاء ويصلون إلى ما وصلنا إليه؟ ويقول: نحن نعيش في روضة من رياض الجنة في ثباتنا على الهدى، أما أنتم وهم ففي ويل وثبور!

يا لله! كم هذا الرجل معجب بنفسه، وكم هو محقر لإخوانه! كم ينظر نظرة الكمال لحاله، ويقرنها بالازدراء لغيره!

من جوانب التزكية للداعي إلى الله تعالى أن يستحضر دائماً هذه القاعدة، وهي أنني لا أمتنع عن النصيحة لأي مخطئ، ولا أتوقف عن الدعوة لأي محتاج لها، ولكنني مستحضر دائماً: أنني أدعوه وقد يكون المدعو عند الله خيراً مني، وإلا أصبت بغرور الطائعين.

ومن أخطر الأمراض الفاتكة أن أدعو عاصياً - سواء اهتدى أو لم يستجب - وتكون دعوتي له سبب دخول الكبر على قلبي، وصرت أنظر إلى نفسي نظرة التقى الواصل، وأنني خير من ذاك العاصي.

رُوي عن الإمام أحمد (ت: ٢٤١ هـ) في مسنده عن أبي الطُّفَيْلِ عَامِرِ بْنِ

وَإِثْلَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا مَرَّ عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَلَمَّا جَاوَزَهُمْ، قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْغِضُ هَذَا فِي اللَّهِ، فَقَالَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ: بئسَ والله ما قُلْتَ، أَمَا وَاللَّهِ لَنُنَبِّئَنَّكَ، فَمَ يَا فُلَانُ رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَخْبَرَهُ، قَالَ: فَأَدْرَكَهُ رَسُولُهُمْ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ، فَاَنْصَرَفَ الرَّجُلُ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَرَرْتُ بِمَجْلِسٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ فُلَانٌ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا السَّلَامَ، فَلَمَّا جَاوَزْتُهُمْ أَدْرَكَنِي رَجُلٌ مِنْهُمْ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ فُلَانًا، قَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْغِضُ هَذَا الرَّجُلَ فِي اللَّهِ، فَادْعُهُ فَسَلِّهِ عَلَى مَا يُبْغِضُنِي؟ فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ عَمَّا أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ، فَاعْتَرَفَ بِذَلِكَ، وَقَالَ: قَدْ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَلِمَ تُبْغِضُهُ؟**» قَالَ: أَنَا جَارُهُ وَأَنَا بِهِ خَابِرٌ، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ يُصَلِّي صَلَاةً قَطُّ إِلَّا هَذِهِ الصَّلَاةُ الْمَكْتُوبَةُ الَّتِي يُصَلِّيهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، قَالَ الرَّجُلُ: سَلِّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلْ رَأَيْتُ قَطُّ أَخْرَجْتُهَا عَنْ وَقْتِهَا، أَوْ أَسَأْتُ الْوُضُوءَ لَهَا، أَوْ أَسَأْتُ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ فِيهَا؟ فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَا، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ يَصُومُ قَطُّ إِلَّا هَذَا الشَّهْرَ الَّذِي يَصُومُهُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ رَأَيْتُ قَطُّ أَفْطَرْتُ فِيهِ، أَوْ انْتَقَصْتُ مِنْ حَقِّهِ شَيْئًا؟ فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لَا، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ يُعْطِي سَائِلًا قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُهُ يُنْفِقُ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا فِي شَيْءٍ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ إِلَّا هَذِهِ الصَّدَقَةُ الَّتِي يُؤَدِّيهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، قَالَ: فَسَلِّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلْ كَتَمْتُ مِنَ الزَّكَاةِ شَيْئًا قَطُّ، أَوْ مَا كَسْتُ فِيهَا طَالِبَهَا؟ قَالَ: فَسَأَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قُمْ، إِنَّ أَدْرِي لَعَلَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ**»^(١).

(١) أخرجه أحمد برقم: ٢٣٨٠٣، والحديث ضعيف كما أفاده محققو المسند.

أرأيت إلى غرور الطائعين؟ حيث توهم ذاك الذي يتطوع في الصلاة والصيام والصدقة أنه خير من الذي يقتصر على الفرائض، فكان الخبر الصاعق من رسول الله ﷺ: «قُمْ، إِنْ أَدْرِي لَعَلَّه خَيْرٌ مِنْكَ»، وسبب ذلك: أنه اقتصر على الفرائض وما أشغل نفسه بانتقاص الآخرين، أما الآخر فتطوع بصلاة وصيام وصدقة، لكنه احتقر من لم يتطوع، فكانت الخسارة في تطوعه أكثر ممن ترك التطوع.

وقد يصاب الداعي بمرض عكس هذا، ألا وهو الامتناع عن التبليغ بدعوى أنه مقصر، وأنه ليس أهلاً للنصح لكونه يذنب، كما قال الإمام أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) رحمه الله: «وربما استدلوا من طريق القياس بأن هداية غيره فرع للاهتمام، وكذلك تقويم غيره فرع للاستقامة، والإصلاح زكاة عن نصاب الصلاح، فمن ليس بصالح في نفسه فكيف يصلح غيره، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج، وكل ما ذكره خيالات، وإنما الحق أن للفساق أن يحتسب، وبرهانه هو أن نقول: هل يشترط في الاحتساب أن يكون متعاطيه معصوماً عن المعاصي كلها! فإن شرط ذلك فهو خرق للإجماع، ثم حسم لباب الاحتساب؛ إذ لا عصمة للصحابة فضلاً عن دونهم»^(١).

وقال ابن الجوزي (ت: ٥٩٧ هـ) رحمه الله: «وقد يلبس إبليس على

(١) «إحياء علوم الدين» ٢: ٣١٢، وما قاله الإمام هنا قد حكى عكسه عن نفسه، وذلك من باب هضم النفس، ونسبة القصور إلى نفسه، كما تقدم ص ٥٨ قوله: «أما الوعظ، فلست أرى نفسي أهلاً له، لأن الوعظ زكاة نصابها الاتعاض، ومن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة، وفقد النور كيف يستنير به غيره، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج».

الواعظ المحقق فيقول له: مثلك لا يعظ، وإنما يعظ متيقظ، فيحمله على السكوت والانقطاع، وذلك من دسائس إبليس؛ لأنه يمنع فعل الخير، ويقول: إنك تلتذ بما تورده وتجد لذلك راحة، فربما دخل الرياء في قولك وطريق الوحدة أسلم. ومقصوده بذلك سد باب الخير^(١).

ومن لطيف الأمثلة ما سمعته من خالي الأستاذ عاطف بيانوني حفظه الله: يقول: إن لله المثل الأعلى، ولكن الداعية إلى الله في دعوته كمنسوب الملك، فإن الملك وكله أن يدعو الناس إلى مائدته العامرة، فصار يحسب الحساب، هل سيكفي الطعام، هل أستطيع خدمة الناس، هل سيُسَرُّ الناس بالدعوة؟ لا والله! لم يطلب منه الملك أن يحسب هذه الحسابات، وما وظيفته إلا دعوة الخلق لمائدة سيده، سواء أكان سيحضر هو أو لا، فإن الدعوة هي من الملك وإليه، وهو من سيكرم الناس، لا الذي بلَّغ الدعوة، فإنه لم يدعه إلى مائدته، ولكن إلى مائدة الملك.

والجميل أن أستحضر دائماً: أنه قد يكون في الحاضرين على مائدة الملك من هم خير مني، مع أنه لم تبلغهم الدعوة إلا عن طريقي، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، اللهم هذب نفوسنا.



(١) «تلبيس إبليس» ص ١١٢.

القاعدة الحادية والثلاثون

٣١. هو عاص لكنه يحب الله ورسوله

بناء على القاعدة التي قبل هذه قد يأتي من يقول: لقد جزمت واقتنعت أنني قد أكون أقل من ذاك العاصي، وقد يكون خيرًا مني، لكن هل يمكن أن يكون العاصي محبًا لله ورسوله ويخالف أمرهما؟ فيأتي الجواب السريع الجاهز في بيتين من الشعر:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

والبيتان صريحان بأن ادعاء الحب مع العصيان ادعاء كاذب، فلا يمكن أن أتخيل إنسانًا يعصي الله وهو محب له، ولو كان حبه صادقًا كما يدعي لأطاع الله تعالى.

لكن الكلام مردود، واستنتاجه من هذه الأبيات استنتاج عاطل باطل، أبتدئ بالحديث الصحيح لدحض الفكرة الخطأ، ثم أبين وجهة الأبيات ومغزاها:

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأَتَى بِهِ يَوْمًا، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنَّهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتِي بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ، مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ

يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ^(١).

ومعنى قوله: جلده في الشراب، أي جلده بسبب شرب الخمر.

وصريح كلام النبي ﷺ لهذا الذي ضعف أمام شهوة من الشهوات أنه يحب الله ورسوله، فإياك إياك أن تظن بمن عصى أنه مبغض لله تعالى، أو أن مستوى حبه لله ورسوله ضعيف.

والسؤال الآن: كيف نوفق بين هذا وبين البيتين الآنفين وهما مما ينسب للسيدة رابعة بنت إسماعيل العدوية (ت: ١٨٠ هـ تقريباً) رحمها الله تعالى؟

الجواب: أن هذه الأبيات هو أنجع دواء يرددها الإنسان لنفسه، كي لا يسأل يوم القيامة: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمُ﴾ [الانفطار: ٦]، أما الحديث الشريف: فهو في نظرة الإنسان لأخيه، فمن الحكمة أن تؤنب نفسك وتكون على حذر، لكن المعيار غير صحيح إذا استعمله الداعي مع أخيه، فمن الحالة الصحية أن تنظر لنفسك أنك مذنب خطاء، ولكن من المرض المستطير أن تجعل هذه النظرة في غيرك.

أجل أيها السادة: إن الشيطان لن يستطيع ثني عن النصيحة، ولن يستطيع أن يقنعني بأن ذنبي أقترفه في الخلوات والجلوات سيجعلني أقطع النصح والإرشاد والدعوة للناس، وفي الوقت ذاته فليس لدي حسن ظن بنفسي بأنها خير من الناس الذين أدعوهم، فمن أكبر الخسائر أن أبيت بعد طول مطالعة، أو نجاح محاضرة، أثلجت صدور السامعين وأنا سكران في نشوة

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٨٠.

الإعجاب ببضاعتي، ويبيت أحد رُؤادي الكبائر العظيمة مكسور الخاطر، رقيق القلب، خجلان من الله تعالى.

والله إن معصية جرت صاحبها إلى انكسار خير من عبادة عظمت صاحبها في عين نفسه، وما أجمل المبدأ الذي خرج من بين شفقي الصديق الأكبر ثاني اثنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال: قد وَلِيْتُكُمْ ولست بخيركم^(١)... أجل ليكن لسان حال الواعظ قد وعظتكم ولست أتقاكم، وذكرتكم وأنا أحوجكم للتذكير، ونهيتكم ونفسي ليست أغنى عن التذكير...

وليكن في قرارة قلبه: بأن حب الله غير متوقف على ظاهر العصيان من الناس، فقد يكون عاصياً وهو يحب الله، ولكنني أخشى على حالي أن أستمري المعصية أو يَحْفَظَ تعظيم الذنب الذي صدر مني فيسلمني صفة الحب عند خالقي.

فالداعي الموفق: من يرى نفسه ليس بشيء، ويرى الناس على خير مهما ظهر له من عصيانهم، ويقول: لعلهم قربوا من الله بلمحة، وقد يغويني الشيطان بلفحة.



(١) «تاريخ الإسلام» للذهبي ١٤٠: ١٤٥.

القاعدة الثانية والثلاثون

٣٢. تذكر أنك تحمل دعوة، لكن لا
تملك جنة ولا نارًا

جلس أحد المربين ممن له يد بيضاء في تربية جماعة يذكر الناس بالتبرع والصدقة لبيت الله تعالى، وجعل يذكرهم بحديث: «مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا، وَلَوْ كَمَفْحَصِ قِطَاةٍ لَبَيَّضَهَا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»^(١)، ويخاطب الأشخاص: ألا تشتهي لبيت في الجنة؟ ألا تطمح لهذا العرض الإلهي؟

فتقمص أحد الطلبة موقف الشيخ في نجاحه، وزاد عليه ملحًا كبيرًا بحيث أفسد الطعام اللذيذ، فجعل يخاطب كل شخص قائلاً، أتريد غرفة في الجنة؟ فإن أعطاه متصدق زاد عليه بقوله: ألا تزيدها مترين من الطرف الشرقي؟ ألا تفرشها بالسجاد؟ أترغب بإضافة الإنارة لقصرك في الجنة؟ وهكذا....

وكان أحد الطلبة يحسن الظن بشيخه، فطلب منه مرة أن يرافقه في الجنة، فخيّل للشيخ أنه من أهل الجنة حقًا، وأنه مترع وسطها، فصاح بوجه التلميذ بأسلوب أبوي مختلط بين الجد والهزل: لا أرافقك ولا أشفع لك إلا إذا فعلت كذا وكذا من العبادات....

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم: ٢١٥٧، وحكم عليه محققو المسند بأنه صحيح لغيره. وقوله:

كمفحص قطاة: القطا نوع من الطير صغير، وعشه مثله.

من أعظم ما يجب على الداعية أن يتحراه في عمله أنه يدل على الجنة ويحذر من النار، لكن الخطأ الجسيم عند من يصور للناس وكأن الجنة والنار ملك يديه، بل أعرف من ندّت منه بعض التجاوزات في العبارات، فيقول مثلاً: ألا ترغب بمزرعة في الجنة؟ ألا ترغب بجورية في الجنة؟ قدم كذا وكذا في سبيل الله وتأتيك، وهذا الداعي يحدد هذه الأمور وكأنها طوع وإرادته ومتناول يديه؟ وفي هذا من سوء الأدب مع الله تعالى بمكان ما لا يخفى على أحد.

نعم: جاء مثل هذا عن رسول الله ﷺ، لكنه الذي لا ينطق عن الهوى، وليس النبي ﷺ في هذا وأمثاله قدوة يقتدى به، إنما هي خصوصية به فداه أبي وأمي.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَفْرَدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةِ مِنْ الْأَنْصَارِ وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا رَهَقُوهُ، قَالَ: «مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ» الحديث...^(١)

ومثلها حادثة: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

ولا شك ولا ريب أن النبي ﷺ يخبر بهذا الخبر بأمر من الله، ولولا أن الله نبأه بذلك وأذن له بذلك لما بشر أصحابه.

إن من أفضل ما يداوي به المرء نفسه استحضر العبودية لله تعالى

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٧٩٢.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٧٧٨.

دائمًا، وحديث رسول الله ﷺ: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قالوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدَّدُوا وَقَارِبُوا»^(١).

فأي جنة ضمنها عبد خطاء، ونبيه المعصوم ﷺ لم يضمن الجنة لنفسه؟ وليذكر أن الله تعالى إنما قال في كتابه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣]. وما أروع خاتمة هذه الآية، إذ فيها اللفتة والجواب لمن قد يقول: أنا أتقى من فلان، أو فلان أتقى من فلان، فجاء الجواب الإلهي: إن الله عليم خبير، فليس العلم والخبر إلا عند الله تعالى.

فيارب لا تخرجنا من سكة العبودية بين يديك، فعبدك مقر بأن ناصيته بيدك، وقد أقمته في مقام الدلالة عليك، فلا يملك من الأمر غير أن يدعو عبادك إلى مائدتك، فالإكرام منك، والطرديك من عدلك.



(١) أخرجه البخاري برقم: ٥٦٧٣، ومسلم برقم: ٢٨١٦.

القاعدة الثالثة والثلاثون

٣٣. الحرص على نجاة المدعو لا إلقاء
المسؤولية عن الكاهل

لقد ردد بعض الدعاة كلمات مفادها: أن هذا الدين دين الله تعالى، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

وهذا كلام حق لكنه يُستعمل أحياناً في غير موضعه، وبناء عليه يظهر منه سوء الخلق، ومعاملة الصد والعلو في التعامل لأن الغاية إنزال الثقل عن الكتف.

يقول الدكتور همام عبد الرحيم سعيد حفظه الله: «ليست الدعوة كما يظن بعض الدعاة أنها كلمة من أجل إبلاغ العذر وإقامة الحجة، ويتوصل إليها بأن يقال كل شيء في كل مكان، وفي أي زمان، ولأي إنسان، مهما كان ظرفه، ولا فرق في ذلك بين محزون ومسرور، ومريض ومشغول وغيره، وكأن الغاية هي إلقاء العبء، وزرع البذر كيفما اتفق، والتوفيق بيد الله تعالى، وبالرغم من كون هذا الأمر دعوة، إلا أنها دعوة على غير بصيرة، والداعية مطالب بالبصيرة مع الدعوة»^(١).

لا ريب أن بعض أسباب انحراف المنحرفين عن الدين كان سببه التدين المغشوش، أو سوء الطبع من الداعي، أو جلالة في المتدين، والذي لا يعرف

(١) «قواعد الدعوة إلى الله» ص ١٦١.

التدين إلا من طريق أناس فيهم من أمراض النفس شيء كثير ظن أن هذه الأمراض من لوازم التدين والتمسك بالشرع، ولا شك أنه جهل وحمق، ولكن عتبي في شرح هذه القاعدة هو على المتدين الفظ، الذي يخاطب الناس خطاب الذي لا يهيمه هداية الناس، ولكنه يهيمه فرض خطاب التعالي على الناس، الذي يحمل في طياته أنا خير منكم، فمن شاء فليأتني إلى ما رسمته له بالحذافير، ومن لا فلا خير فيه، وتكتشف في طيات كلام هؤلاء وأمثالهم أنهم يجدون الدعوة عبثًا على صدورهم، يريدون أن ينزلوا عن كواهلهم إثم السكوت عن الدعوة، وتعمى أبصارهم عن مقصد الدعوة وهو إيصال رسالة الإسلام لغير المسلم، وإنقاذ المسلم من أحوال الكبائر والعصيان والبعد عن الله، وتحسين حال فئام آخرين من الناس.

قد يتبادر لذهن القائل: أن هذا الكلام بدهي لا يحتاج إلى تعقيد ولا نص، فمن الحقائق النظرية التي لا تنكر أن الواجب علي أن أحرص على نجاة العاصي، أقول: لكن التطبيق العملي قد ينزاح عن هذه الغاية، فترى بعض من يدعو تأتيه مواقف التشنج، وتتغير النية عنده بين: أريد نجاته، وبين أريد إزاحة المسؤولية عن عاتقي، فإذا ما سلك الطريق الثاني مع التشنج، تنتهي النهاية وكأنه يستوي عنده هلاك المدعو أو نجاته، لأن الغاية أن يوصل الرسالة كي لا يسأل عنها.

ولذا أقول: إن من عاين خطاب سيدنا موسى إلى فرعون، أخذ درسًا عظيمًا في هذا المضمار، حيث إن الله تعالى أمر نبيه موسى بلين الخطاب مع فرعون، وامتنال هذا الأمر، لكن الخطاب المقابل من فرعون كان في

الحضيض، ولولا أن سيدنا موسى التزم الأمر الإلهي لتغير خطابه، قال تعالى حكاية للحادثة: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اتَّبِعْ أَفْوَاجَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۖ أَلَا يَنْقُورُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَادْهَبَا بِأَيْدِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنْ اتَّخَذَتِ الْإِلَٰهُ غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ١٠ - ٢٩].

ولولا أن الذي في مخطط سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - هو الحرص على نجاة فرعون لما استرسل معه في الحوار بعد أن قال لمن معه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

وشتان ما بين حال نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام، وبين حال من ينصب نفسه للتذكير ليلقي المسؤولية عن كاهله.



القاعدة الرابعة والثلاثون

٣٤. إذا لم تقرب المدعو من الله فاحذر
أن تزيد في بُعده

إن سوء عرض القضية الحق أحياناً ليكون سبباً في زيادة الشرخ بدلاً من الإصلاح، ومن باب أولى سوء الدعوة إلى الله، إذا أصبح سبباً لبعده العاصي عن ربه.

وابعاد الناس عن دين الله أمر هين لا يحتاج إلى كبير خبرة، ولا عظيم مهارة، بل كثير من أمور الهدم لا يحتاج إلى تعب ولا ذكاء، والصعوبة دائماً تكمن في البناء، فكثير من المخفقين الذين يدافعون عن الإسلام بحرقه إنما يهدمون في دين الله أكثر مما يبنون، ونيتهم خدمة الإسلام، كما يقول بعض الدعاة: «الإسلام قضية عادلة تولوها مُحامٍ مخفق»، ويقول آخر: «ليس بالضرورة أن تكون عميلاً كي تهدم في الإسلام، إنما يكفي أن تكون أحمق»^(١).

لا أشبع من الترنم في حروف رسول الله ﷺ التي حملها لعل بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو الشاب المتحمس الطموح، كما أخبر سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ عَلَيَّ يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ: أَيُّهُمْ يُعْطَى، فَعَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيٌّ» فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي

(١) يتناقلها الناس عبر وسائل التواصل الاجتماعي معزوة للشيخ محمد الغزالي، ولم أعثر على مصدر لها إلى هذا الوقت.

عَيْنِيهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأ كَأَن لَّمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ فَقَالَ: أَقَاتِلْهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَحِبُّ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَن يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَن يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»^(١).

قارنتُ مواقف حدثت لدعاة زادوا من أجيج نار العصيان في أناس، مع ما كان من مواقف تربوية وأساليب دعوية من رسول الله ﷺ لمن يدعوه فذهلت لعظيم المفارقة بينهما.

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ من أهل نجدٍ نائِر الرأس، يُسَمِّعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ وَلَا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ». فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَصِيَامُ رَمَضَانَ». قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قَالَ: فَأَذْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أُرِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ»^(٢).

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا أَرَادَ هُدَى زَيْدِ بْنِ سَعْنَةَ، قَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ عَلَامَاتِ التُّبُوَّةِ شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتُهَا فِي وَجْهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ، إِلَّا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَخْبِرْهُمَا مِنْهُ: يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلُهُ، وَلَا يَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا، فَكُنْتُ أَتَلَطَّفُ لَهُ لِأَن أُخَالِطَهُ فَأَعْرِفَ حِلْمَهُ وَجَهْلَهُ. قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْحُجُرَاتِ، وَمَعَهُ عَلِيُّ بْنُ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٠٩، ومسلم برقم: ٢٤٠٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٦، ومسلم برقم: ١١.

أَيُّ طَالِبٍ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ كَالْبَدَوِيِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَرِيبَةُ بَنِي
 فُلَانٍ قَدْ أَسْلَمُوا وَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَكُنْتُ أَخْبَرْتُهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ أَسْلَمُوا أَتَاهُمْ
 الرِّزْقُ رَغَدًا، وَقَدْ أَصَابَهُمْ شِدَّةٌ وَقَحْطٌ مِنَ الْعَيْثِ، وَأَنَا أَخْشَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ
 أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْإِسْلَامِ طَمَعًا كَمَا دَخَلُوا فِيهِ طَمَعًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِمْ
 مَنْ يُغِيثُهُمْ بِهِ فَعَلْتُ. قَالَ: فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَجُلٍ جَانِبَهُ، أَرَاهُ عُمَرَ،
 فَقَالَ: مَا بَقِيَ مِنْهُ شَيْءٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ: فَدَنَوْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ:
 يَا مُحَمَّدُ، هَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنِي تَمْرًا مَعْلُومًا مِنْ حَائِطِ بَنِي فُلَانٍ إِلَى أَجَلٍ كَذَا
 وَكَذَا؟ فَقَالَ: «لَا، يَا يَهُودِي، وَلَكِنْ أَبِيعَكَ تَمْرًا مَعْلُومًا إِلَى أَجَلٍ كَذَا وَكَذَا،
 وَلَا أُسَمِّي حَائِطَ بَنِي فُلَانٍ»، قُلْتُ: نَعَمْ، فَبَايَعَنِي ﷺ، فَأَطْلَقْتُ هِمْيَانِي^(١)،
 فَأَعْطَيْتُهُ ثَمَانِينَ مِثْقَالًا مِنْ ذَهَبٍ فِي تَمْرٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ كَذَا وَكَذَا، قَالَ:
 فَأَعْطَاهَا الرَّجُلَ وَقَالَ: «اعْجَلْ عَلَيْهِمْ وَأَغْنِهِمْ بِهَا». قَالَ زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ: فَلَمَّا
 كَانَ قَبْلَ حِلِّ الْأَجَلِ بِيَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ
 الْأَنْصَارِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ وَنَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا صَلَّى عَلَى
 الْجِنَازَةِ دَنَا مِنْ جِدَارٍ فَجَلَسَ إِلَيْهِ، فَأَخَذْتُ بِمَجَامِعِ قَمِيصِهِ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ
 بِوَجْهِهِ غَلِيظٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلَا تَقْضِينِي يَا مُحَمَّدُ حَقِّي؟ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكُمْ بَنِي
 عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِمَظِلٍّ، وَلَقَدْ كَانَ لِي بِمُخَالَطَتِكُمْ عِلْمٌ، قَالَ: وَنَظَرْتُ إِلَى عُمَرَ
 بْنِ الْخَطَّابِ وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي وَجْهِهِ كَالْفَلَكَ الْمُسْتَدِيرِ، ثُمَّ رَمَانِي بِبَصَرِهِ
 وَقَالَ: أَيُّ عَدُوِّ اللَّهِ، أَتَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَسْمَعُ، وَتَفْعَلُ بِهِ مَا أَرَى؟ فَوَالَّذِي
 بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، لَوْلَا مَا أَحَازِرُ قُوَّتَهُ لَصَرَبْتُ بِسَيْفِي هَذَا عُنُقَكَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ
 يَنْظُرُ إِلَى عُمَرَ فِي سُكُونٍ وَتَوَدَّةٍ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّا كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْكَ يَا

(١) الهميان: كيس النقود.

عُمَرُ: أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الْأَدَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ التَّبَاعَةِ، أَذْهَبَ بِهِ يَا عُمَرُ فَأَقْضِيهِ حَقَّهُ، وَزِدَهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ غَيْرِهِ مَكَانَ مَا رُعْتَهُ». قَالَ زَيْدٌ: فَذَهَبَ بِي عُمَرُ فَقَضَانِي حَقِّي، وَزَادَنِي عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الزِّيَادَةُ؟ قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَزِيدَكَ مَكَانَ مَا رُعْتُكَ، فَقُلْتُ: أَتَعْرِفُنِي يَا عُمَرُ؟ قَالَ: لَا، فَمَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: أَنَا زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ، قَالَ: الْحَبْرُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، الْحَبْرُ، قَالَ: فَمَا دَعَاكَ أَنْ تَقُولَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا قُلْتَ، وَتَفْعَلَ بِهِ مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: يَا عُمَرُ كُلُّ عِلَامَاتِ النُّبُوَّةِ قَدْ عَرَفْتُهَا فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ نَظَرْتُ إِلَيْهِ إِلَّا اثْنَتَيْنِ لَمْ أَخْتَبِرْهُمَا مِنْهُ: يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلُهُ، وَلَا يَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَهْلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا، فَقَدْ اخْتَبَرْتُهُمَا، فَأَشْهَدُكَ يَا عُمَرُ أَنِّي قَدْ رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا، وَأَشْهَدُكَ أَنَّ شَطْرَ مَالِي - فَإِنِّي أَكْثَرُهَا مَالًا - صَدَقَةٌ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ عُمَرُ: أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ، فَإِنَّكَ لَا تَسْعُهُمْ كُلَّهُمْ، قُلْتُ: أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ. فَرَجَعَ عُمَرُ وَزَيْدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ زَيْدٌ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ، فَأَمَّنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ...^(١)

وأخيرًا أقول: إن الكثير من الناس ليستطيع أن يوصل الناس إلى جهنم، وأغلبهم يستطيع أن يزيد في عصيان العاصي، والكل يستطيع أن يبغض دين الله للبشر، ولكن الناجح في الدعوة من يستطيع أن يصل الناس بالله، وينقذهم من الضلال إلى الجنة.

(١) أخرجه ابن حبان برقم: ٢٨٨، وقال الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» ٧: ٣٤٧: «هذا حديث حسن مشهور في دلائل النبوة»، وإن كنت أميل إلى ضعف الحديث كما أشار إلى ذلك الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٢: ٢٦١، ولكن يستفاد منه دروس دعوية، ولا ضرر من كسب الفائدة من حديث ضعيف.

القاعدة الخامسة والثلاثون

٣٥. دعاة لا قضاة

وهذه القاعدة مشهورة معروفة، حتى إن بعض الدعاة قد استخدمها عنوان مؤلف له، حيث إن الداعية عندما يعرف حده المرسوم، وهو أنه داع، وليس بقاض، بحيث لا يحق أن يحاكم على الخطأ مثلاً، أو يوبخ، أو يعنف، أو يقتص لأحد، وأنه وإن بان له انحراف العاصي فإن وظيفته أن يدل على الله لا غير، إلا إذا كان قاضياً أو حاكماً إضافة لكونه داعياً، فتلك تمارس ضمن مهنته، وفي مكانها المخصص فحسب.

وما أجمل إجابة الداعية البصير لما سُئل: «ما حكم تارك الصلاة؟» والسائل يتوقع أن تكون الإجابة من الشيخ: «كافر»، لكن الجواب الصادم كان: «حكمه أن تأخذ بيده إلى المسجد»^(١).

أجل؛ حكمه أن يستتاب، لكن هذا الحكم للقضاة لا الدعاة، أما حكم تارك الصلاة بالنسبة للداعية، هو أن يعمل على خطط دعوية جذابة يقنع بها العاصي وتارك الصلاة بترك ما هو عليه من سوء الحال.

روى عبد الرزاق (ت: ٢١١ هـ) وابن أبي شيبة (ت: ٢٣٥ هـ) في مصنفيهما عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَعَثَنِي أَبُو مُوسَى يَفْتَحُ تُسْتَرَّ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَسَأَلَنِي عُمَرُ، وَكَانَ سِتُّهُ نَفَرٍ مِنْ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ قَدْ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ،

(١) يتناقلها الناس عبر وسائل التواصل الاجتماعي معزوة للشيخ محمد الغزالي، ولم أعثر على مصدر لها إلى هذا الوقت.

وَلَحِقُوا بِالْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ النَّفَرُ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ؟ قَالَ: فَأَخَذْتُ فِي حَدِيثٍ آخَرَ لِأَشْغَلَهُ عَنْهُمْ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ النَّفَرُ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ؟ قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! قَوْمٌ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَلَحِقُوا بِالْمُشْرِكِينَ، مَا سَبِيلُهُمْ إِلَّا الْقَتْلُ، فَقَالَ عُمَرُ لَأَنْ أَكُونَ أَخَذْتُهُمْ سَلْمًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعْتُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ مِنْ صَفَرَاءَ أَوْ بَيْضَاءَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! وَمَا كُنْتُ صَانِعًا بِهِمْ لَوْ أَخَذْتُهُمْ؟ قَالَ: «كُنْتُ عَارِضًا عَلَيْهِمُ الْبَابَ الَّذِي خَرَجُوا مِنْهُ أَنْ يَدْخُلُوا فِيهِ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ، قَبِلْتُ مِنْهُمْ، وَإِلَّا اسْتَوْدَعْتُهُمْ السَّجْنَ»^(١).

يا له من فرق بعيد المدى، بين ما فكر به عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبين ما يفكر به بعض من يريد الدعوة للإسلام من مراهقي الدعوة في عصرنا، بحيث يتجسسون على العاصي ليعثروا له على زلة ليقيموا عليه شريعة الله، ويقوموا عوجه بالحدود المطهرة! بل هو عمل تتبع للعورات بحت، قد أسدل عليه سربال الإسلام زورًا وكذبًا، وهو تدين مشوّء، مثله كمثل قطعة من الطعام متعفنة، قد غُطَّت بالنكهات، وغلفت بالزينة الفاخرة المثيرة لشهوة الطعام، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وأنبه الآن إلى الأحاديث التي فيها أن النبي ﷺ قاضى إنسانًا، أو عاقب أحدًا، أجل؛ إن لشخص النبي ﷺ عدة اعتبارات، فله صفة القاضي بجانب صفة النبي الداعي إلى الله، وهو القائد في الجيش إضافة إلى صفة القائد العام. أما الذي يبلغ عن الله ورسوله، فليس هو بحاكم ولا قاض ولا شرطي ولا محقق ولا مقتض، بل هو الداعي إلى الله فحسب.

(١) أخرجه عبد الرزاق برقم: ١٨٦٩٦، وابن أبي شيبة برقم: ٣٣٤٠٦، قال العبد الضعيف: وإسناد الحديث صحيح.

القاعدة السادسة والثلاثون

٣٦. اجعل هدفك سامياً كبيراً، ولا تقبل بالأقل عند القدرة، وليكن شعارك: «لأهدين الناس أجمعين».

لقد صدق المتنبى (ت: ٣٥٤ هـ) عندما قال:

وَلَمْ أَرِ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

إن القراءة في سيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في القرآن العظيم لتوصل للناس دروساً وعبراً على الإصرار في الدعوة إلى الله تعالى، والحماس والجد في طريقها، وتجعل المؤمن يقول لله تعالى: فبعزتك لأهدين الناس أجمعين، ومن المعيب جداً أن ترى الفتور عند بعض الدعاة، بحيث يريد الهداية للناس من غير تعب منه، ولا بذل مال، بل ولا تحرك أصلاً:

تَسْأَلُنِي أُمُّ الْوَلِيدِ جَمَلًا يَمْشِي الْهُونَا وَيَجِيءُ أَوَّلًا

هذا شيء مستحيل، ومن لطائف ما يقال لهؤلاء الكسالى: إياك أن تكون همتك أحط من همة إبليس، فقد خاطب الله تعالى: ﴿ قَالَ فِعْزَتِكَ لِأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]^(١)، فهذا أشقى الخلق، ويعرف بطلان دعوته، وهلاك من سلك طريقه، ومع ذلك تفانى في إغواء الناس، فكيف بمن يأخذ

(١) الفائدة أفادنيها شياخي الجليل الشيخ جابر مصري حفظه الله، ولم أعرف من صاحبها الأول فاللهم اجز صاحبها خيراً.

صنعة الأنبياء، ويمشي طريق الرسل، ليهدي الناس، أولئك ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

لقد كانت همة النبي ﷺ همة عالية، يريد أن يبلغ الناس حتى آخر لحظة في حياته، وهو يعظ ويؤدي الأمانة، فقد صح عنه ﷺ أنه آخر ما نطق به بأبي وأمي هو: «**الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»^(١).

وكان من همته ﷺ أنه يسعى نحو هدفه وكأنه يراه رأي العين^(٢) - علاوة على وحي الله له بالبشرى والشبات والتمكين.

وكان من همته ﷺ أنه لم يترك أحدًا إلا وأعطاه الهداية، ولكن لكل بحسب قربه وفهمه من الإسلام، فأعطى الصغير ما يناسبه، وأعطى الأعرجي ما يلزمه، وأعطى حديث العهد بالإسلام ما يدعم موقفه، وزود المرأة بما يخصها، وخاطب المزارع على قدر خبرته.

وكان من همته ﷺ أنه يكتسب كل فرصة ليدعو بها إلى الله.

والحديث عن همة رسول الله ﷺ في الدعوة كبير رفيع العماد، ولا أدل على هذا من إصرار رسول الله ﷺ على الدعوة طول حياته، ولا سيما في العهد المكي، الذي دام ثلاث عشرة سنة، رأى فيها البلاء والشدة والتكذيب، ولولا الهمة العليا لما وصل إلى الهدف السامي

فَعَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ مَا قَلَّمَ جَرَى وَجَلَا الدِّيَاجِي نُورُهُ الْمُبْتَسِمُ
فَبِرَبِّهِ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا

(١) أخرجه أحمد برقم: ٥٨٥، وحكم محققو المسند على الحديث بالصحة.

(٢) كما جاء في أحاديث عدة، منها قوله ﷺ: «لَا يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْإِسْلَامَ بِعَزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ». أخرجه البخاري برقم: ٦٦٩٩.

ومن الهمة أيضًا ألا يصدك عن الدعوة أي عائق، فالأصل في أعداء الدين أنهم لا يفترون عن محاربة الدعوة وهم على باطل، أَفَيَقْتُرُ وارث النبوة عن مهمته وطريقه درب الأنبياء!.



القاعدة السابعة والثلاثون

٣٧. اربط مرید الهداية بالإسلام لا بنفسك

لقد نبه القرآن الكريم على ضرورة هذه القاعدة في القرآن الكريم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

لقد ربط النبي ﷺ المسلمين بالإسلام وبنفسه، لأنه ﷺ كان مشرعاً، وهذا الرابط بالنبي الكريم ﷺ هو خاص به، وينتهي بموته ﷺ لأنه الوحيد كان مشرعاً، فقد روى جريرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ»، فَقَالَ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(١).

أما مَنْ دونه من الصحابة فمن بعدهم فليس لهم أن يربطوا الإسلام بأنفسهم، أجل؛ كثيراً ما سمعت أذناي أقواماً من العامة يقولون - وهم يحسبون أنهم يحسنون قولاً، ويمدحون شيخهم -: «إنني لم أحضر عند أحد من الدعاة بعد وفاة شيخي، ولم يعجبني كلام أي أحد من الدعاة بعد كلام فلان!!»، وكثيراً ما رأيت أعين الناس كيف انقسمت جماعة الشيخ الواحد إلى جماعات متشاكسة متناحرة عقب وفاة الشيخ! ولعل السبب الرئيس هو ربط

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٢١، ومسلم برقم: ٦٥.

الدعوة بالشيخ، فحيث ذهب الشيخ ذهبت الدعوة كلها معه.

فمن القواعد المهمة: التركيز في نفس المسلم على المبادئ، لا على الأشخاص، ورأيت بأمر عيني كثيرًا من الناس، ممن اهتدى على يد رجل اتعظ بكلامه، ثم كره الدين كله لأن ذاك الرجل غيّر وانحرف، والخطأ الذي وقع فيه صاحب الانحراف أنه لم يربط الهداية بالإسلام، إنما نظر إلى الإسلام كله - على عظمه - من خلال هذا الرجل، فلما سقط الرجل من عينه سقط الإسلام كله معه.

لكن الذي تمسك بالإسلام فإنه لا يهتم غياب الشيخ، ولا وفاته، ولا انحرافه وانجرافه إلى مسالك سيئة.

وهذه المسألة مفصلة بصريح عبارة السيد الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم وفاة النبي ﷺ لما وقف وقال: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ^(١).

كما يجب أن يصل إلى كل الدعاة أنه كان في الإسلام «صديقها أبو بكر» و«فاروقها عمر بن الخطاب» و«أكثرها حياء عثمان بن عفان» و«حيدرة البطل علي بن أبي طالب» و«أمينها أبو عبيدة بن الجراح» و«أسد الله حمزة بن عبد المطلب» و«سيف الله خالد بن الوليد»، ولكن الأمة لم تتوقف بعد فقدهم، ولم تنهر عقب من قضى نحبه، ولا كانت قائمة على من ينتظر أجله، بل استمرت ومضت، وفقدت في كل مرحلة عظيمًا من عظمائها، ولكنها باقية ولأدّة، ولم يُضَمّ الدين بعد أحد، فكيف يتوقف العلم

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٦٦٧.

والدعوة بموت عالم؟ إنه سوء التخطيط من الداعية وتلامذته، حيث رُبِطَت
الدعوة بالشخص، فتوقفت بموته، وزالت بزواله.



القاعدة الثامنة والثلاثون

٣٨. ارحل في سبيل الدعوة ولا تنتظر
مجيء الناس إليك.

الأكثر في حياة الداعي إلى الله أنه كالمطر يأتي هو إلى الناس، في بيوتهم، وأماكنهم، وربما لا يستفاد منه، ويكون أحياناً كالبرق يأتي الناس إليه ليفيدوا من علمه ويأخذوا من إرشاده.

التحرك في الدعوة إلى الله تعالى أساس في حياة الداعية، ولا ينتظر الداعية الناس حتى تأتي إليه، بل يرحل ويبدوهم بالدعوة، وما أجمل القول الذي يكرره جماعة الدعوة والتبليغ: «انتشر الإسلام أول ما انتشر بالأقدام، لا بالأقلام» ولا يفهم من هذا القول التزهيد من التأليف والكتابة، بل يفهم منه لفت الانتباه إلى التحرك في سبيل الدعوة، وعدم الخلود إلى البيت والمسجد وانتظار مجيء الناس لأخذ العلم والنصح، لأن خروج النبي عليه الصلاة والسلام إلى الأندية، وعرضه نفسه على القبائل، ثم خروجه إلى الطائف، ثم هجرته إلى المدينة؛ أكبر درس في إثبات هذه القاعدة.

هذا فضلاً عن الزيارات الخاصة التي كان النبي ﷺ يقوم بها للدعوة إلى الله تعالى، فقد زار سعد بن أبي وقاص لما مرض^(١)، كما زار الغلام اليهودي الذي كان يخدمه^(٢).

(١) الحديث سيأتي ص ١٨٤.

(٢) الحديث سيأتي ص ١٩٤.

وأكتفي هنا بمثالين عن زيارات النبي ﷺ الدعوية لأصحابه:

أ - جاء في الحديث: أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «أَيُّ عَمٍّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرَعْبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَالَ يُكَلِّمَانِي، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا أَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحِ عَنْهُ» فَتَزَلَّتْ: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] وَتَزَلَّتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]^(١).

ب - وَقَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي دَارِنَا هَذِهِ، فَاسْتَسْقَى، فَحَلَبْنَا لَهُ شَاءَ لَنَا، ثُمَّ شُبَّتُهُ مِنْ مَاءٍ بِئْرِنَا هَذِهِ، فَأَعْطَيْتُهُ، وَأَبُو بَكْرٍ، عَنْ يَسَارِهِ، وَعُمَرُ تُجَاهَهُ، وَأَعْرَابِيٌّ عَنْ يَمِينِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ عُمَرُ: هَذَا أَبُو بَكْرٍ، فَأَعْطَى الْأَعْرَابِيَّ، ثُمَّ قَالَ: «الْأَيْمُنُونَ الْأَيْمُنُونَ، أَلَا فَيَمْنُوا»، قَالَ أَنَسُ: فَهِيَ سُنَّةٌ، فَهِيَ سُنَّةٌ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٢).

ولا بد من التوازن بين رحلة الداعي إلى الناس، وبين بقائه في مقره ليأتي الناس إليه، ولا بد من التوازن أيضًا في خلطته للناس، فمن الصحيح أن لا ينتظر قدوم الناس إليه، ولكن من الخطأ أن يستهلك وقته في زيارات الناس لإصلاحهم.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٨٨٤، ومسلم برقم: ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢٥٧١، ومسلم برقم: ٢٠٢٩.

الأمر الأول: أجل يستحب للداعي - كما سلف في شرح هذه القاعدة - ألا يبقى في مكانه، بل يرحل إلى الناس، ولكن بشرط ألا يصبح قدومه إليهم، ومبادرتهم بالزيارات موضع ملل أو تهكم منهم.

الأمر الأخير: ألا تكون كثرة الزيارات على حساب تطوير نفسه علمياً وثقافياً وتربوياً، وما يلزمه في صلاح ديناه وآخرته من المهمات.

وسمعت فضيلة الشيخ فتحي الصافي الدمشقي (ت: ١٤٤٠ هـ) رحمه الله وهو يتكلم في أحد تسجيلاته المصورة، ويخبر عن نفسه أنه كان يدخل القرى النائية البعيدة التي يندر أن يصل إليها الدعاة، حتى ينجح في سحب عدد من أبنائها إلى طلب العلم، ومجرد أن تنتشر الدعوة في القرية، ويصل أبنائها إلى طلب العلم يذهب إلى قرية أخرى مثليها.

وهذا نوع من الدعوة فرض كفاية، إن لم يقم به دعاة البلد كلهم فإنهم يأثمون، ورحم الله أحد الدعاة الذي دخل من أجل الدعوة نحواً من ثلاثة آلاف قرية وبلد، فمن جاء إلى المعين ليرتوي فحيلاً به، وكذا من وظيفة ورّاث الأنبياء أن يأتوا إلى الناس في أنديتهم.



القاعدة التاسعة والثلاثون

٣٩. حرك الإيمان في قلوب الناس فكثير منهم من يحتاج إلى تحريك يسير

أعجبتني كلمة سمعتها من بعض جماعة التبليغ وهي قولهم: «لا يغرنك ظاهر الناس، فالكثير منهم كالشاي الذي طعمه مر، والسكر في أسفل الكأس، فهو بحاجة لتحريك السكر فقط ليظهر طعمه».

لا أنكر أن أكثر الكافرين والعصاة لا يقع لهم التحول بسرعة، إنما يحتاج معهم الصبر والمصابرة والمرار، ولكن في الوقت ذاته قد تجد بعيداً عن الله بعداً كثيراً فيما يبدو لك، وحقيقته أن الإيمان وخوف الله في قلبه راسخ، ومجرد أن حركت الإيمان في قلبه ظهرت آثاره على الجوارح، وانقلبت حياته رأساً على عقب، وأكتفي بذكر دليلين:

الأول: كان بدعوة كافر بعيد ولكن سرعان ما استجاب.

والآخر: كان مع محب خرج عن الخط المستقيم قليلاً.

الأول: يحدث سيدنا أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن قصة إسلامه قائلاً: ... أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّهُ قَدْ وَجَّهَتْ لِي أَرْضُ دَاتُ نَحْلٍ لَا أُرَاهَا إِلَّا يَتَرَبَّ، فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي قَوْمَكَ؟ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ، وَيَأْجُرَكَ فِيهِمْ»، فَأَتَيْتُ أَنْبَسًا، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: صَنَعْتُ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، قَالَ: مَا بِي رَغْبَةً عَنْ دِينِكَ، فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ فَأَتَيْنَا أُمَّنَا، فَقَالَتْ: مَا بِي رَغْبَةً

عَنْ دِينَكَمَا، فَإِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَصَدَّقْتُ، فَاحْتَمَلْنَا حَتَّى أَتَيْنَا قَوْمَنَا غِفَارًا، فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ، وَكَانَ يُؤْمَهُمْ أَيْمَاءُ بْنُ رَحْصَةَ الْغِفَارِيُّ وَكَانَ سَيِّدَهُمْ، وَقَالَ: نِصْفُهُمْ إِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَسْلَمْنَا، فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ الْبَاقِي، وَجَاءَتْ أَسْلَمُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِخْوَنُنَا نُسَلِّمُ عَلَى الَّذِي أَسْلَمُوا عَلَيْهِ فَأَسْلَمُوا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «غِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللَّهُ»^(١).

في الحديث الأنف أسلم عدد كبير دون تعب أو عناء، فإن بذرة الإيمان موجودة، وكانت بحاجة لتحريك، فلما حركت آتت أكلها.

الآخر: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمْ أَرَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْمَرَأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَيْنِ، قَالَ اللَّهُ لَهُمَا: ﴿إِنْ نُبَوِّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤] فَحَجَجْتُ مَعَهُ، فَعَدَلْ، وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِالْإِدَاوَةِ، فَتَبَرَّزَ حَتَّى جَاءَ، فَسَكَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْإِدَاوَةِ، فَتَوَضَّأَ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مِنَ الْمَرَأَتَانِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمَا: ﴿إِنْ نُبَوِّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، فَقَالَ: وَاعَجَبِي لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ: عَائِشَةُ، وَحَفْصَةُ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ عُمَرُ الْحَدِيثَ يَسُوقُهُ، فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ وَجَارًا لِي مِنَ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاقَبُ التُّرُوبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ مِنْ خَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْأَمْرِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَهُ، وَكُنَّا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى الْأَنْصَارِ إِذَا هُمْ قَوْمٌ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٤٧٥.

يَأْخُذَنَّ مِنْ أَدَبِ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ، فَصَحْتُ عَلَى امْرَأَتِي فَرَاغَعَنِي فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي، فَقَالَتْ: وَلَمْ تُنْكِرْ أَنْ أُرَاجِعَكَ، فَوَاللَّهِ إِنَّ أَرْوَاحَ النَّبِيِّ ﷺ لَيُرَاجِعُنَّهُ، وَإِنْ إِحْدَاهُنَّ لَتَهْجُرُهُ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ، فَأَفْزَعَنِي، فَقُلْتُ: خَابَتْ مَنْ فَعَلَ مِنْهُنَّ بَعْضُهُمْ، ثُمَّ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: أَيُّ حَفْصَةَ أَتَغَاضِبُ إِحْدَاكُنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ، فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: خَابَتْ وَخَسِرْتُ، أَفَتَأْمَنُ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ لِعْضَبِ رَسُولِهِ ﷺ فَتَهْلِكِينَ، لَا تَسْتَكْثِرِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا تُرَاجِعِيهِ فِي شَيْءٍ، وَلَا تَهْجُرِيهِ وَاسْأَلِينِي مَا بَدَأَ لَكَ، وَلَا يَعْزُوكَ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكَ هِيَ أَوْضَأَ مِنْكَ وَأَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عَائِشَةَ، وَكُنَّا نَحْدِثُنَا أَنَّ غَسَّانَ تُنْعِلُ النَّعَالَ لِعِزْوِنَا، فَنَزَلَ صَاحِبِي يَوْمَ نَوْبَتِهِ فَرَجَعَ عِشَاءً، فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا، وَقَالَ: أَنَأَيْمُ هُوَ، فَفَزَعْتُ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، وَقَالَ: حَدَّثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هُوَ، أَجَاءَتْ غَسَّانُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ أَعْظَمُ مِنْهُ وَأَطْوَلُ، طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ، قَالَ: قَدْ خَابَتْ حَفْصَةُ وَخَسِرْتُ، كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذَا يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ فَجَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي، فَصَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَدَخَلَ مَشْرُبَةً لَهُ فَاعْتَرَلَ فِيهَا، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَإِذَا هِيَ تَبْكِي، قُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ، أَوَلَمْ أَكُنْ حَدَّرْتُكَ! أَطَلَّقَكُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَا أَدْرِي، هُوَ ذَا فِي الْمَشْرُوبَةِ، فَخَرَجْتُ فَجِئْتُ الْمُنْبَرَّ، فَإِذَا حَوْلُهُ رَهْطٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ، فَجَلَسْتُ مَعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ، فَجِئْتُ الْمَشْرُوبَةَ الَّتِي هُوَ فِيهَا، فَقُلْتُ لِغُلَامٍ لَهُ أَسْوَدَ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ، فَدَخَلَ فَكَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ: ذَكَرْتُكَ لَهُ، فَصَمَتَ، فَأَنْصَرَفْتُ حَتَّى جَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمُنْبَرِّ، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ، فَجِئْتُ فَذَكَرْتُ مِثْلَهُ، فَجَلَسْتُ مَعَ الرَّهْطِ الَّذِينَ عِنْدَ الْمُنْبَرِّ، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ، فَجِئْتُ الْغُلَامَ، فَقُلْتُ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ، فَذَكَرْتُ مِثْلَهُ،

فَلَمَّا وَلَّيْتُ مُنْصَرِفًا، فَإِذَا الْغُلَامُ يَدْعُونِي، قَالَ: أَذِنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالٍ حَصِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ، قَدْ أَكَّرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ مُتَكَيِّئٌ عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشَوْهَا لَيْفٌ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ: طَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَيَّ، فَقَالَ: لَا، ثُمَّ قُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ: أَسْتَأْنِسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ رَأَيْتَنِي وَكُنَّا مَعَشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى قَوْمٍ تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَذَكَرَهُ، فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ قُلْتُ: لَوْ رَأَيْتَنِي وَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: لَا يَغُرَّنَّكَ أَنْ كَانَتْ جَارَتِكَ هِيَ أَوْضًا مِنْكَ وَأَحَبَّ إِلَيَّ النَّبِيِّ ﷺ يُرِيدُ عَائِشَةَ، فَتَبَسَّمَ أُخْرَى، فَجَلَسْتُ حِينَ رَأَيْتُهُ تَبَسَّمَ، ثُمَّ رَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ غَيْرَ أَهْيَةِ ثَلَاثَةٍ، فَقُلْتُ: ادْعُ اللَّهَ فَلْيُوسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ، فَإِنَّ فَارِسَ، وَالرُّومَ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ وَأَعْطَا الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَكَانَ مُتَكِنًا، فَقَالَ: «أَوْفِي شَكَّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أُولَئِكَ قَوْمٌ عَجَّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَغْفِرْ لِي، فَأَعْتَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ حِينَ أَفْشَتْهُ حَفْصَةُ إِلَى عَائِشَةَ، وَكَانَ قَدْ قَالَ: مَا أَنَا بِدَاخِلٍ عَلَيْهِنَّ شَهْرًا مِنْ شِدَّةِ مَوْجِدَتِهِ عَلَيْهِنَّ حِينَ عَاتَبَهُ اللَّهُ، فَلَمَّا مَضَتْ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَبَدَأَ بِهَا، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: إِنَّكَ أَفْسَمْتَ أَنْ لَا تَدْخُلَ عَلَيْنَا شَهْرًا، وَإِنَّا أَصْبَحْنَا لِتِسْعٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً أَعْدَهَا عَدَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ وَكَانَ ذَلِكَ الشَّهْرُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَنْزِلْتَ آيَةَ التَّخْيِيرِ، فَبَدَأَ بِي أَوَّلَ امْرَأَةٍ، فَقَالَ: «إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا، وَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ»، قَالَتْ: قَدْ أَعْلَمْتُ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِكَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لَا زَوْجَ لَكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٣٥]، قُلْتُ: أَفِي هَذَا أَسْتَأْمِرُ

أَبَوِي، فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ، ثُمَّ خَيْرَ نِسَاءهُ، فَقُلْنَ: مِثْلَ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ^(١).

وفي هذا الحديث دليلان على سرعة رجوع حبيب وقريب مجرد الخروج عن الصراط المستقيم قليلاً، الأول: سيدنا عمر لما شعر أنه أخطأ مع النبي ﷺ حيث قال له: يا رسول الله استغفر لي، والأخرى: السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما قالت: فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ.



(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٤٦٨، ومسلم برقم: ١٤٧٩.

القاعدة الأربعون

٤٠. شَخَّصْ حَقِيقَةَ الْمُنْكَرِ وَبَدِيلَهُ قَبْلَ
الْإِنْكَارِ

شيخ عالم ورع من أهل الجد والمثابرة في العبادة، كلما التقى الشبان حثهم على التفرغ للعبادة، وكلما رأى من يلهو حثه على كسب العمر بالقرآن، الشيخ ناجح في ذاته، كَسَّاب لوقته، ولكن دعوته في أقرب خاصته هذه لم تفلح، لأنه لا يرى من العمر أن تضيع ثانية في غير تلاوة القرآن والصلاة والعبادة، والشباب من حوله كلهم يشيد بإيمان هذا التقي، وكلهم لم يتغير من حاله قيد أنملة، ولم يستطيع هذا التقي أن يبدل فيهم، أتدرون لم؟

لأنه لا يطرح في خطابه كله إلا الجد، فلا يقول للناس: «يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» كما قال المصطفى ﷺ^(١)، إنما ينادي في الناس دائماً: استبدلوا

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٥٠) عَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسَدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - قَالَ: لَقِيتُنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْنَا عَيْنَ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ نُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْنَا عَيْنَ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدْرُمُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتَكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ -».

ولو طلب منهم أن يكون لأنفسهم عليهم حق، ولجسد هم حق، ولنوابيهم حق لأفلاح، كما قال المصطفى ﷺ لعبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلَمْ أُخْبَرَ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ... فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَتَمْ، فَإِنَّ لَجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرَوْحِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْوَرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا...»^(٢). ومعنى الرِّزور: الضيف الزائر.

(٢) الحديث بتمامه أخرجه البخاري برقم: ١٩٧٥، ومسلم برقم: ١١٥٩، ولفظ البخاري: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ»، فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَفُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرُوحِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِمِثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ»، فَشَدَدْتُ فَشَدَّدَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً؟ قَالَ:

لا ريب أنه شخص حقيقة المنكر، ولكن أتى بما لا يصلح بديلاً له.

هذا وإن المنكر لا ينكر دائماً في الجملة، بل لا بد من التفريق بين منكر وأخيه، كما قال الحافظ ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١ هـ) رحمه الله: «فإنكار المنكر أربع درجات، الأولى: أن يزول ويخلفه ضده، الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته، الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله، الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه؛ فالدرجتان الأولىان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة؛ فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله كرمي الرصاص لتسديد الهدف، وسباق الخيل ونحو ذلك، وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهُو ولعب أو سماع مكاء وتصدية فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلا كان تركهم على ذلك خيراً من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك فكان ما هم فيه شاغلاً لهم عن ذلك، وكما إذا كان الرجل مشغلاً بكتب المجون ونحوها وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحر فدعه وكتبه الأولى، وهذا باب واسع؛ وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة،

«فَضُمَّ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا تَرُدُّ عَلَيْهِ»، قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ قَالَ: «نِصْفَ الدَّهْرِ»، فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبُرَ: يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُحْصَةَ النَّبِيِّ ﷺ.

وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم»^(١).

هذا فقه راسخ في الدعوة سطره الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله، ويضاف إليه تنمة لها تعلق بموضوع هذه القاعدة، ألا وهو أن البديل إنما يكون مما يخلف المبدل منه، ويؤدي وظيفته، فليس القرآن بديلاً عن أغنيات الخلاعة مثلاً! ولكن البديل هنا هو النشيد المنضبط الذي ليس فيه ما يخالف الإسلام، كما أن اللحم ليس ببديل عن الخمر، ولكن الذي يستبدل عن الخمر هي العصائر الحلال حيث يشترط في البدائل الدعوية أن تكون من جنس المبدل، ويؤدي بعض أغراضه وغاياته.

من هنا يلاحظ أن الذي استبدل حلقات القرآن الكريم للشباب باجتماعهم على لعب كرة القدم مع سفلة الناس لم ينجح بهذا الاستبدال، والصواب أن يهيئ لهم نشاطاً رياضياً كالنشاط الذي يريد هجره، يؤدي أكثر غايته، وحلقات القرآن الكريم لا تتوافر فيها الغاية.

ولقد تنبه بعض علماء عصرنا لضرورة هذا فحثوا على الأعمال الدرامية الإسلامية، والأنشطة الرياضية، وسباق السيارات، والسباحة، والرمي، واللهو والترويح بالفكاهة والمرح والإضحاك، واللعب بالحراب، وفن القتال والملاكمة والمصارعة، وتسلق قمم الجبال، وغيرها من الأنشطة بشرط أن تكون إسلامية منضبطة بضوابط الشرع، لأن كثيراً من أنفس الشباب تميل إلى مثل هذه الأمور وأشباهها، وليس معقولاً أبداً أن تُوفّر لشباب

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» ٣: ١٣.

وفتيات عصرنا حوائجهم الوجدانية مضبوطة في الشرع، وإذا لم توفر مضبوطة بالشرع فسوف يتفلت من بين أيدينا الشباب الطالع، ويتسربون إلى أماكن غير منضبطة^(١).

ولا يفهم من هذا أن يصب الجهد الدعوي على أمور الترويح ويهمل جانب العمران الإيماني والفقهي والفكري الأصيل، إنما أتكلم عن فقه البدائل، فللفقه وقته الذي لا يستعاض عنه باللهو، وللهو وقته الذي لا يغني عنه الفقه، ولكل مقام مقال، كما لكل فن رجال.

وأختم بالإشارة إلى فقه أفقه الناس بالدعوة إلى الله فقد صح عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا، فَقَالَ: «مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟» قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكَمُ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْأَضْحَى، وَيَوْمَ الْفِطْرِ»^(٢).



(١) ألف الدكتور السيد محمد علوي المالكي كتاباً سماه: «صلة الرياضة بالدين ودورها في تنشئة الشباب المسلم»، كما ألف الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي كتاباً سماه: «فقه اللهو والترويح» كلاهما بين ضرورة هذه المشاريع والأنشطة في الإسلام، ومن ثنايا الكتابين تجد بوضوح أن مشاريع الترويح عن النفس مطلوبة شرعاً، ولا تلغى، ولا يوضع مكانها حلق العلم، ولا التربية الفكرية، ولا حلقات تدبر القرآن العظيم.

(٢) أخرجه أحمد برقم: ١٢٠٠٦، وأبو داود برقم: ١١٣٤، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح».

القاعدة الحادية والأربعون

٤١. وازن في خطابك بين الترغيب
والترهيب

حدثني صديقي أنه كان حاضرًا في المسجد الكبير في حلب الشهباء، فسمع الشيخ يدرس ويقول: إننا نأمل بعفو الله تعالى أن يعفو الله تعالى عن كل سارق يوم القيامة، ويعطي المسروق له حتى يرضيه.

أسأل عن هذه الفتوى: ماذا لو كان أحد الحاضرين من السراق؟ أخطر بباله مثقال حبة من خردل أن يتوب إلى الله ويَرْعُوِي ويرد المظالم لأهلها؟

لقد وصف ابن الجوزي (ت: ٥٩٧ هـ) رحمه الله حال هذا الشيخ وأمثاله بأنهم ممن لبس إبليس عليهم وقال: «ومنهم من يتكلم في الرجاء والطمع، من غير أن يمزج ذلك بما يوجب الخوف والحذر، فيزيد الناس جرأة على المعاصي، ثم يقوي ما ذكر بميله إلى الدنيا من المراكب الفارهة والملابس الفاخرة، فيفسد القلوب بقوله وفعله»^(١).

يقول أحد أهل العلم: إنني لأبحث في فتاوى الشيخ فلان وأنا أجزم قبل معرفة الحكم أن فتواه ستكون في المنع والترهيب.

للكلام عن الحكمة في طرح الترغيب والترهيب أقول: إن هذا يقتضي منا التفريق بين الدعوة الفردية، والجماعية المنحصرة، والجماعية العامة.

(١) «تلبس إبليس» ص ١١٢.

أما الفردية: فينظر فيها إلى حال المدعو، فإن كان من الأمنين من مكر الله، فمن حكمة الداعي أن يعدل له الكفة، ويحدثه عن الشدة والعذاب، وإن كان من القانطين من رحمة الله حدثه عن الرحمة والجنة والمرغبات.

وأما الجماعية المنحصرة: كأن يكون للداعي عصبية معينة يجلس إليهم، فالواجب عليه أن ينظر: هل هم ممن جنحوا إلى الترغيب أو التهيب أو هم أخلاط مختلفون، فإن كانت الأولى أو الثانية وجب عليه تعديل الكفة نحو الطرف الآخر، وإن كانت الأخيرة استعمل طريق الدعوة الجماعية، وهو البيان المتوازن بين الترغيب والتهيب.

ولكن عند الطرح على الداعي أن يقدم الترغيب على التهيب، وهذا الحديث من خير الأمثلة، حيث إن النبي ﷺ كان يرسل الصحابة رسلاً مبشرين برسالة الإسلام، يقدمون الإسلام والسلام لا الشدة، وإن كانت الشدة لمن عادى الدين موجودة، فقد ثبت عَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ، فَأَيُّهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي

عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلَهُمُ الْحِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ، أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»^(١).

قد يقال: الحديث ينص على أمير الجيش لا على الداعي؟ أقول: بل إن الرسول المرسل هو داع للإسلام، ومقاتل لمن يصد عن دين الله.

وأما الدعوة الجماعية العامة: فيجب أن يوازن في طرحه بين الترغيب والترهيب، فيطرح هذه وتلك: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ...﴾ [غافر: ٣] ﴿نَبِيِّ عِبَادِي أَتَى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]. إلا إن فشا مرض معين في جماعة كأكل الربا مثلاً، وأراد أن يحثهم على تركه، ركز بشكل أساسي على الشدة، وتعرض للرحمة عرضاً.

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِالْفَقِيهِ حَقَّ الْفَقِيهِ؟ مَنْ لَمْ يُقْنَطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُرَخَّصْ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ، وَلَمْ يُؤْمَنْهُمْ مَكْرَ

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٧٣١.

اللَّهِ، وَلَمْ يَتْرُكِ الْقُرْآنَ إِلَى غَيْرِهِ. أَلَا لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَفْقُهُ، وَلَا خَيْرَ فِي فِقْهِ لَيْسَ فِيهِ تَفْهَمُ، وَلَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَدْبُرُ^(١).

وقد صح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: أتانا رسول الله ﷺ في مسجدنا هذا، وفي يده عرجون ابن طاب، فرأى في قبلة المسجد نحامة فحكها بالعرجون، ثم أقبل علينا فقال: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللَّهُ عَنْهُ؟». قال: فخشعنا، ثم قال: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللَّهُ عَنْهُ؟» قال: فخشعنا، ثم قال: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللَّهُ عَنْهُ؟». قلنا: لا أيُّنا يا رسول الله. قال: «فإنَّ أحدكم إذا قام يصلي، فإنَّ الله تبارك وتعالى قبل وجهه، فلا يبصقنَّ قبل وجهه، ولا عن يمينه، وليبصقنَّ عن يساره تحت رجله اليسرى، فإن عجلت به بادرةً فليقل بثوبه هكذا ثم طوى ثوبه بعضه على بعض»^(٢).

يستفاد من هذا الحديث هنا أنه جاء في علاج نقطة معينة في دعوة جماعية، فلذا جاز الاختصار على الترهيب فقط.

وتبقى أهم صفة في الداعية بعد النظر، والتوازن في طرح كل كلمة في خطابه، فما أحسن التوازن، وما أقبح الجنوح.



(١) أخرجه أبو داود في الزهد برقم: ١٠٤، وإسناده لا بأس به.

(٢) أخرجه مسلم (٣٠١٤).

القاعدة الثانية والأربعون

٤٢. علق القلب واصرف الوقت على من
سمع، لا من أعرض

لقد كان في سبب نزول سورة عبس درس عظيم، حيث إن الله تعالى علم نبيه ﷺ أن مداراة من معه أجدى وأولى، ولها التصدر والسيادة إذا ما تعارضت مع دعوة المعرضين، روى ابن حبان (ت: ٣٥٤ هـ) رحمه الله، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: أُنْزِلَتْ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى، قَالَتْ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أُرْشِدْنِي، قَالَتْ: وَعِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ، وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخِرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا فَلَانُ أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا». فَيَقُولُ: لَا، فَتَزَلَّتْ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١]^(١).

لا شك أن مداراة القريب والمصدق والصديق أجدى من الأمل بتحويل عدو إلى الصداقة، إذ الصديق ربح ملموس في اليد، وأما الآخر فهو احتمال لا تدري أينجح أم يخفق.

ومن أجمل الصور الصادقة الرائعة عندما تجد أن عدد الذين أسلموا على يد النبي ﷺ من الصحابة ليس بالكبير، ولكن كل واحد منهم أصبح جسداً متحرّكاً نائباً عن رسول الله ﷺ مؤدياً لدعوته، ونسخة عن هداة.

(١) أخرجه ابن حبان برقم: ٥٣٥، وقال محققه: «إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن عمر الجعفي فهو من رجال مسلم».

ويحتاج المسلمون إلى دراسة متأنية في سيرة النبي ﷺ، تظهر بدقة وعناية كم صرف النبي ﷺ من وقته لبناء القادة في الدعوة، وكم أعطى من نفيس عمره في سبيل ذلك، ولا عجب بعدها إذا رأيت أن عدد الذين أسلموا على يد رسول الله ﷺ إسلامًا تامًا - مؤمنين بكامل القضية، وحاملين لها - كانوا خلال ثلاثة عشر عامًا لم يبلغوا المئات، وأن الذين دخلوا في دين الله أفواجًا خلال أحد عشر عامًا تلتها كانوا بعشرات الآلاف.

وألخص مئات الصفحات التي بسطت في السيرة فأقول: كان جل وقت النبي ﷺ الدعوي يقضيه مع القلة القليلة الذين اتبعوه، كلها في الإعداد والتدريب والتهيئة والتعليم، ولا يفهم من هذا أبدًا أن النبي ﷺ أعرض عن المشركين بالكلية، معاذ الله أن أدعي هذا، ولكنه أنفق نفيس الوقت لإعداد من معه، وليت هذه الطريقة في العمل الإسلامي أصبحت متبعة.

قد يقول قائل: لا أجد في المقبلين على الدعوة إلا عددًا قليلًا، أقول: إن أحدنا لا يدري في أي دعوته البركة، لا تبال بكثرة العدد، ولا تغتر بالأتباع، فقد ورد في الحديث: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ الرَّهَيْطُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ فَظَنَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاصَ النَّاسُ فِي أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»^(١).

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٢٠.

القاعدة الثالثة والأربعون

٤٣. افرح بالتحسن التدريجي ولا تفرح
بالانقلاب الفوري

عندما تغلب العاطفة على العوام يتحولون بشكل مفاجئ من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار أو العكس، وهو تحول عاطفي، يخشى الغيور على صاحبه من النكسة التي تعيد المرء إلى أسوأ مما كان عليه.

وقد روى أحمد (ت: ٢٤١ هـ) رحمه الله في مسنده، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرَفْقٍ»^(١).

إن النبي ﷺ في منهجه العملي كان يحارب الطفرة ولا يرضى عنها، فعندما تاب كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن تخلفه عن غزوة تبوك، وأنزل الله تعالى بقبول توبته قرآناً، نهض كعب بصدق توبته يخاطب النبي ﷺ قائلاً: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أُخْلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةٌ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ. قَالَ: «أُمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». فَقَالَ كَعْبٌ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي مَحَبَّرَ^(٢).

(١) أخرجه أحمد رقم: ١٣٠٥٢، وقال محققو المسند: «حسن بشواهده»، وستأتي بعد قليل ص: ١٨٤ رواية أخرى لهذا الحديث من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيها زيادة في اللفظ.

(٢) أخرجه البخاري رقم: ١٤٢٦.

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُوذُنِي عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجَعِ، وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَتُهُ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِي مَالِي؟ قَالَ: «لَا». فَقُلْتُ: بِالشَّطْرِ؟ فَقَالَ: «لَا». ثُمَّ قَالَ: «الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَبِيرٌ، - أَوْ: كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِي امْرَأَتِكَ»^(١).

وقد يرد هنا سؤال: ألم يتصدق أبو بكر بكل ماله وقبلة رسول الله ﷺ؟ أقول: لكن هذا الموقف لم يكن من أبي بكر طرفة، وتحمساً في موطن، وإلا لما قبل منه، إنما كان بعد طول مراس.

وأوضح الفرق بينهما بمثال: قد يأتي إليك التائب الجديد يخبرك أنه يريد أن يقوم ثلث الليل، فتنهاه عن ذلك، وتخشى عليه من الانقطاع، وأن يكون هذا الموقف نوعاً من التحمس الآتي، ويأتي من قضى عمره في التقوى متدرجاً، ولا تخاف عليه الانتكاس، فيخبرك أنه يقوم شطر الليل، فلا تنهاه ولا تغير له.

نعم من الخطأ أن يرضى الداعي من حديث عهد بالالتزام أن يقبل على العبادات كلها دفعة واحدة، خوف الملل والانقطاع، كما روي عن النبي ﷺ قوله: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»^(٢).

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٢٩٥، ومسلم برقم: ١٦٢٨.

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى»، كتاب الصلاة، جماع أبواب صلاة التطوع وقيام شهر

وأعجبني كلمة الشيخ محمد الغزالي (ت: ١٤١٦ هـ) رحمه الله عندما قال: «نحن نريد أن نعلم الناس الإسلام كله، فإذا كان الإسلام سبعين شعبة أو يزيد فلنبدأ بالأهم فالمهم، ونأخذ الناس بطريق التدرج كما فعل القرآن وهو يعرض تعاليمه على الناس.

والتدرج سنة قرآنية، لها أبعاد تربوية لا بد من إدراكها حتى يمكن تبليغ دعوة وإقامة حضارة، إن تحريم الخمر جاء بعد غزوة أحد بسنتين تقريباً، أي: إن ناساً ممن قتلوا في أحد ماتوا وفي بطونهم خمور، وهم شهداء، ما نقص هذا من إيمانهم، ولا أضرع ثوابهم عند الله، المهم أن الإسلام عندما عرض أخذوا بجملة ما عرض منه، ما بقي لم يكلفوا به لأنه لم يطلب منهم.

نحن الآن نعرض الإسلام متدرجين في التطبيق، وأعتقد أن العرض في الجبهة الشرقية غير العرض في الجبهة الغربية، وأن الكلام عن الإسلام بين الهنود غير الكلام عن الإسلام بين الزوج، غير الكلام عن الإسلام بين عرب يتبعون إحدى الجبهتين، وهكذا...

فلا بد من أن أعطي الإسلام على مراحل بحيث إني سأصل إلى الإسلام كله حتماً، ولكن بالطريقة التي أقر بها الإسلام في القلوب والمجتمعات، وهذا ما يمكن أن أسميه سنة التدرج، يمكن أن نستعير هنا ما عرّف به العرب البلاغة من أنها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فنرى أنه لا بد من

رمضان، باب: القصد في العبادة والجهد في المداومة، ٣: ١٨، برقم: ٤٨١٩، وإسناد الحديث فيه ضعف، وهو مروي من حديث جابر وعبد الله بن عمرو مرفوعاً، ومن حديث ابن المنكدر مرسلًا، انظر رواية الحديث التي مرت ص ١٨٣.

دراسة أحوال المستفيدين من الخطاب، وعمرهم الحضاري، وعقلهم، والمشكلات التي يعانون منها، ثم بالتالي التفكير بما يعرض عليهم، مع احتفاظ الداعي بالرؤية الشاملة للإسلام التي يجب أن تنتهي بالناس إليها، وقد يكون المطروح: التدرج في التطبيق، أما التشريع فأمره استقر عند الحكم النهائي بعد أن أكمل الدين^(١).

وأختم الكلام بأصح حديث يطلب التدرج في الدعوة، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى: أَنْ يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمُظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(٢).

ولقد صدق من قال: قليل دائم، خير من كثير منقطع.



(١) «كيف نتعامل مع القرآن» للشيخ محمد الغزالي ص ١٢٩.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ١٤٩٦، ومسلم برقم: ١٩.

بعد كتابة ما تقدم اطلعت على بحث مهم أبدع فيه الدكتور محمد عبد الغفار الشريف في الكلام على التدرج في التشريع في كتابه الماتع: «بحوث فقهية معاصرة» بحث رقم: ٣، فارجع إليه، وانظر خلاصة الترجيح عنده ص ١٥٥.

القاعدة الرابعة والأربعون

٤٤. ارض بالقليل قبل الجزيل ممن لم
يرسخ في قلبه الإيمان بالله الجليل

يتوهم غير المخالط لبشاشة الإيمان أن في الالتزام عُقْدًا وتَعْقِيدًا، وأنه سيمنعه من الملهذات، ويجرمه من السرور، ويلقيه بين حبال الموانع والحواجز التي تحجز عن الراحة في الدنيا، يظن - وحق له لأنه لم يذق، ومن ذاق عرف - أن التدين سلسلة من «لا تفعل»، ووراء كل «لا تفعل» كبت للنفس، فإذا ما ذاق غسل الإيمان، وخالطت حلاوته شغاف قلبه تبين له العكس من ذلك، يشعر بالراحة في الصلاة التي كان يحسبها قطعًا عن الملهذات، إذا هي قطع للشواغل إلى الراحة، واستجمام للذهن من صخب الحياة، كما يرى الصوم محطة نقاهة بين عنائين من إجهاد الجسد في الطعام، وهلم جرًا.

وكم كان من هذا التوهم حواجز تمنع الإنسان من الالتزام، ويأتي الراسبون في الدعوة ليشجعوه على الضلال بدل الهدى، فإذا ما أفصح لهم أنه يريد الالتزام بالصلاة والزكاة ولكن يرى راحة لذهنه من كد الحياة في لعب النرد مثلاً، صاحوا بوجهه: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً»^(١) وقالوا له: «الدين كُلُّ لا يتجزأ، أتريد أن تؤمن ببعض

(١) الحديث أورده ابن أبي حاتم في العلل برقم: ٥٣٤، وأخبر أنه سأل علي بن الحسين بن الجنيد عنه فأجابه: «هذا حديث كذب وزور»، قلت: ومع نكارة الثبوت هو منكر المعنى، نعم؛ لو صح لكان لظاهره توجيه حسن، أما وحال ثبوته بهذا الضعف فإنه لا يعول عليه ولا يلتفت له.

الكتاب وتكفر ببعض؟» لعمر الله إن استشهاده بالصحيح منها يدل على عدم فقهه في الدعوة، والراسخون في الدعوة لو عرض عليهم مثل هذا العرض لقالوا لصاحبه: لا حرج أن تلتزم في الصلاة وإن كنت مقترفاً لبعض الأخطاء! إن صلاتك ستهذب لك ما بقي من الأدران، لأنها الأصل الذي لا يقبل غيره من النقائص وصدق أصدق القائلين: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وصدق رسوله الذي قيل له: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ، قَالَ: «سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ»^(١).

وقس على هذا أموراً أخرى كثيرة، توجب على الداعي أن يرضى من حديث التدين الإتيان ببعض الالتزام دون تنمة الجسد الواحد، لأنه على يقين بقوة جذب الطاعة لأخواتها.

جاء عن نَصْرِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَى أَنَّهُ لَا يُصَلِّي إِلَّا صَلَاتَيْنِ، فَقَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ^(٢).

إن الفهم العاطل الباطل من هذا الحديث أن يفهم بأن النبي ﷺ قد رضي منه رفضه لبعض الصلاة، حاشا وكلا أن يكون هذا، ولكِنْ - إن صح الحديث - رضي النبي ﷺ الالتزام ببعض الصلاة لأنه يعلم أنه ممن حكم على

(١) أخرجه ابن حبان برقم: ٢٥٦٠، والحديث حسن.

(٢) أخرجه أحمد برقم: ٢٠٢٨٧، وهذا حديث ضعيف، وقال الحافظ البوصيري في «إتحاف الخيرة المهرة» عن طريق ابن أبي شيبه، وهو عين هذا السند: «هذا إسناد رجاله ثقات». أي: ما عدا الرجل المبهم وهو واضح، ولا يستطيع أحد أن يثبت له الصحة إلا بعد معرفته، أما والحال كذلك فلا.

الصلاة بالصعوبة قبل أن يتذوق شهداء، وأنه سيلتزم بها إن ذاق حلوها وعرف طيبها، وهو التدرج الدعوي الذي لا إشكال عليه، توضحه النصوص الآتية:

عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ: أَنَّ وَفَدَ ثَقِيفٍ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَهُمُ الْمَسْجِدَ لِيَكُونَ أَرْقَ لِقُلُوبِهِمْ، فَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ لَا يُحْشَرُوا، وَلَا يُعْشَرُوا، وَلَا يُجْبُوا، وَلَا يُسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ غَيْرُهُمْ، قَالَ: فَقَالَ: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ لَا تُحْشَرُوا، وَلَا تُعْشَرُوا، وَلَا يُسْتَعْمَلَ عَلَيْكُمْ غَيْرُكُمْ». وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَا رُكُوعَ فِيهِ». قَالَ: وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي الْقُرْآنَ، وَاجْعَلْنِي إِمَامَ قَوْمِي^(١).

يفسر موقف النبي ﷺ صريح ما روى أبو داود (ت: ٢٧٥ هـ) في سننه عَنْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٩١٣)، قال محققو المسند: «رجاله ثقات رجال الصحيح غير أن في سماع الحسن من عثمان اختلافاً»، أي: إن شبهة في صحة الحديث واقعة. ثم نقل محققو المسند عن السندي شرحه لألفاظ هذا الحديث فقالوا: وقوله: أن لا يُحْشَرُوا... إلخ على بناء المفعول، ومعنى لا يحشروا: لا يندبوا إلى الجهاد، ولا يضرب عليهم البعوث، وقيل: لا يحشروا إلى عامل الزكاة ليأخذ صدقة أموالهم بل يأخذها في أماكنهم. ومعنى لا يعشروا: لا يأخذ عشر أموالهم، وقيل: أراد به الصدقة الواجبة، وإنما فسخ لهم في تركها، لأنها لم تكن واجبة يومئذ عليهم، وإنما تجب بتمام الحول. وسئل جابر عن اشتراط ثقيف أن لا صدقة عليهم ولا جهاد، فقال: عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ سَيَصْدُقُونَ وَيَجَاهِدُونَ إِذَا أَسْلَمُوا فَرُخَصَ فِيهَا.

ولا يُجْبَوُا: بضم الياء وفتح الجيم وضم الباء المشددة على بناء الفاعل من التجبية، وأصل التجبية أن يقوم مقام الراكع، وقيل: أن يضع يديه على ركبتيه وهو قائم، وقيل: أصلها السجود، وبالجمله، فمرادهم أن لا يصلوا مجازاً، قال جابر: ولم يرخص لهم في ترك الصلاة لأن وقتها حاضر يتكرر بخلاف وقت الزكاة والجهاد.

وَهَبِ قَالَ: سَأَلْتُ جَابِرًا عَنْ شَأْنِ ثَقِيفٍ إِذْ بَايَعْتُ، قَالَ: اشْتَرَطْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ لَا صَدَقَةٌ عَلَيْهَا، وَلَا جِهَادٌ، وَأَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ: «سَيَتَصَدَّقُونَ، وَيُجَاهِدُونَ إِذَا أَسْلَمُوا»^(١).

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «أَسْلِمَ». قَالَ: إِنِّي أَجِدُنِي كَارِهًا. قَالَ: «وَأِنْ كُنْتَ كَارِهًا»^(٢).

وفي رواية لهذا الحديث عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي التَّجَارِ يَعُودُهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا خَالُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». فَقَالَ: أَوْ خَالُ أَنَا أَوْ عَمٌّ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا، بَلْ خَالُ». فَقَالَ لَهُ: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». قَالَ: هُوَ خَيْرٌ لِي؟ قَالَ: «نَعَمْ»^(٣).

وما ذاق لذة النعيم عاقل قط وطلب أن يبتعد عنها، ولكن الجهل بالنعيم ألجأه لاختيار غيره، فاقبل منه جزءاً من التقدم في الحل، فإذا الذي اشترط عليك ألا يزيد في العبادة كأنه راهب منقطع في صومعته.



(١) أخرجه أبو داود برقم: ٣٠٢٥، وقد حكم الشيخ شعيب الأرنؤوط على إسناده بالصحة في ٤: ٦٣٨، وقال الخطابي في «معالم السنن» ٣: ٣٤: «ويشبه أن يكون النبي ﷺ إنما سمح لهم بالجهاد والصدقة لأنهما لم يكونا واجبين في العاجل، لأن الصدقة إنما تجب بتمام الحول، والجهاد إنما يجب بحضور العدو، وأما الصلاة فهي واجبة في كل يوم وليلة، فلم يجوز أن يشترطوا تركها» انتهى مستفاداً من تحقيق شيخنا الشيخ محمد عوامة لسنن أبي داود ٣: ٤٨١.

(٢) أخرجه أحمد برقم: ١٢٠٦١، وأبو يعلى في مسنده برقم: ٣٨٧٩، وحكم المحققون في كلا الكتابين على إسناده الحديث أنه صحيح على شرط الشيخين.

(٣) أخرجه أحمد برقم: ١٢٥٤٣، وقال المحققون: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

القاعدة الخامسة والأربعون

٤٥. الدعوة إلى الأصول قبل الفروع^(١).

يجب اتباع هذه القاعدة عند الابتداء مع كل أصناف المدعوين من الكافرين، والعصاة ذوي الموبقات، والأطفال الصغار، وضعيفي الإيمان، ومن نشأ ببلد بعيد عن الإسلام، والداخلين أبواب التوبة من جديد، وأمثالهم...

النفس البشرية لا تثبت على الأوامر الكثيرة غالبًا، فهي قد تتقبل الطلبات الكثيرة، وترضى بالتحول الفجائي، والنقلة السريعة، ولكن سرعان ما تنطفئ حرارة وهج الحماس، ويعود كل شيء إلى ما كان عليه، بل ربما يتراجع صاحب الطفرة كما سبق بيانه.

وعندما تكون الحكمة تاج أعمال الداعي تراه يبحث عن أهم الأمور، وأقل الطلبات، وأشد النقاط حاجة ماسة ضمن موازنة سلسلة ما يُهْمُّ تقديمه للمدعو، ويمسك بأكثرها ضرورة أو حاجة ملحة، ويقصر الكلام عليها دون تقديم غيرها معها دفعة واحدة.

وها هنا ترى الداعي بحكمته يقدم الأصول على الفروع، والواجب على الجائز، والكبائر على الصغائر، والأهم على المهم، والسنن على المباحات، والواجبات على السنن، ويحذر ضمن هذه الموازنة بدون كيل للطلبات

(١) هذه القاعدة عنوان مقالة للشيخ الأديب علي الطنطاوي رحمه الله تعالى، ذكرها في كتابه «فصول في الدعوة والإصلاح» ص ١٢٣، وهي موجودة عند العلامة الشيخ جمعة أمين أيضًا في كتابه القيم: «الدعوة قواعد وأصول» ص ٢٠٧.

والتحذيرات من غير ميزان دقيق يقيس فيه.

وإن الذي يدرس مراحل تنزل القرآن الكريم يجد أن المرحلة المكينة وهي ثلاث عشرة سنة كلها كانت في تثبيت الأصول، ثم لما تمكن الإيمان من قلوب الصحابة بدأ ينزل التشريع لكامل الدين، حتى كمل الدين وتم.

وإلى هذا المعنى أشارت السيدة الجليلة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بقولها: إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةُ مِنَ الْمُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الزَّنى أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٦] وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ^(١).

يستفاد من كلام السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن الأحكام لم تأت في الشرع إلا متأخرة عن الدعوة للإسلام، ومثلها كثير من العبادات، فمن كان قد قطع الأشواط في بحر الإيمان فإنه يطالب بالأحكام والعبادات، كما طلب الله تعالى من نبيه في بدايات النبوة أن يقوم الليل: ﴿يَتَأَيَّأُ الْمُرْمَلُ﴾ ﴿قُرْ آتِلْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٤].

ولا يصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها، قدم الأهم على المهم، والأصول على الفروع، وامش على هذا السلم على حسب أرقام درجاته.

(١) اقتصر على موضع الشاهد من حديث أخرجه البخاري برقم: ٤٩٩٣.

ولا تغب لك عن ذهن فكرة توزيع الكلام على حسب مستوى المدعو، وهي التي قد تمت الإشارة إليها سابقاً، فلا يحق للداعي أن يتمسك بالأصول دائماً، ويدعو للأصول ذوي الإيمان الراسخ، وحملة الدعوة، وأشباههم، كالذي جلس في مجلس العلماء أئمة المساجد وأهل الوعظ وجعل يحدثهم عن أهمية الطهارة، وتطهير الثياب! وشدة عذاب القبر لمن لا يستتر من بوله!

إنما تأتي هذه الموازنة مع عرض الدعوة على حديث عهد بالالتزام، يقدم الداعي له من الدعوة الأهم فحسب، ولا يكثر من الطلبات عليه، فإذا تربعت الأصول على عرش قلبه فليس عليه جناح أن يؤدي الفروع، ثم ما بعدها...



القاعدة السادسة والأربعون

٤٦. قدم الإحسان للناس عند دعوتهم

الإحسان كلمة كبيرة تشتمل على أمور كثيرة، فقد يكون الإحسان للمُعْدِم بتقديم الطعام، وقد يكون بقضاء الحاجة، وقد يكون بعيادته في مرضه، أو توفير ما يحتاجه من فرصة عمل أو دراسة ولد، أو ابتسامة، أو تقدير جهده، وغير ذلك.

لقد أدرك أعداء الإسلام جدوى هذا الإحسان فجعلوا يركزون في إخراج الناس من دين الله في الإحسان إليهم، فيقدمون في أفريقيا الدواء للمريض، ويساعدون الطلبة على الرحلة خارج البلد لإتمام الدراسة، ويحلون مشكلة الرجل المسن، ويساعدون الشاب على الزواج، وتأسيس اللبئات الأولى في عُش الزوجية.

وليس كل الناس بحاجة لمثل هذه المساعدات المادية، فهناك الغني الذي بحاجة إلى من يعوده في مرضه لمواساته فقط، وشبيه به من يملك المال الوفير والمنصب الرفيع وقد وقع في حبال السحرة، فليس مثل هذا بحاجة إلا للوقوف إلى جانبه فيما يلح عليه من طلب، والإحسان عليه.

والله إن في قصة إحسان النبي ﷺ بعبادة الطفل اليهودي الذي كان يخدمه لدروسًا وعبرًا، كما قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ». فَتَنَظَرَ إِلَى

أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطْعُ أَبَا الْقَاسِمِ عليه السلام، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَقُولُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»^(١). وأعجبتني لفظة لهذا الحديث في صحيح ابن حبان، وهي قوله: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِأَصْحَابِهِ: «اذْهَبُوا بِنَا إِلَيْهِ نَعُودُهُ» فَأَتَوْهُ وَأَبُوهُ قَاعِدٌ عَلَى رَأْسِهِ^(٢).

فهل بعد هذا الإحسان من إحسان؟ وسوف أذكر عدة جوانب من الإحسان كانت في هذه الحادثة من خلال الروایتين:

- ١- النبي صلى الله عليه وسلم بعظمته وانشغاله وأعبائه الملقاة على كاهله جاء ليعود طفلاً.
- ٢- الطفل كان من ديانة مختلفة عن دين هذا الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم.
- ٣- أخذ أصحابه معه.
- ٤- الطفل لم يكن من عائلة ذات منصب، ولا ابن سيد.
- ٥- الطفل نفسه خادم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فكم من دروس الإحسان في عيادة الرسول صلى الله عليه وسلم والرجال معه إلى طفل خادم عنده من ديانة أخرى؟

وأقسم أن كل هذه الدروس لم تكن هي وحدها تثقل ميزان استجابة والد الغلام لإسلام ولده، ولكن السبب الرئيس إحسان النبي صلى الله عليه وسلم الدائم الشامل السابق للناس عامة، وللطفل وعائلته خاصة، فلا والله لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليعامل هذا الخادم كما يعامل أمثاله أكثر أهل عصره، إنما كان يغرقه

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٣٥٦.

(٢) أخرجه ابن حبان برقم: ٢٩٦٠.

بإحسانه طول فترة خدمته، بل ويغرق الناس بإحسانه حتى جزم واستقر في قلب هذا اليهودي وولده أن مثل هذا الرجل العظيم لا يخالف إذا طلب الطلب، وإن كان الطلب لتغيير الدين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلًا قَبْلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ**». فَاَنْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاعْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ^(١).

وأختم بحديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عِنْدَمَا قَالَ: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمُ، أَسْلِمُوا! فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ^(٢).

ولقد صدق أبو الفتح علي بن محمد البستي (ت: ٤٠٠ هـ) رحمه الله لما قال:

أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعِيدُ قُلُوبَهُمْ فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ
وَكُنْ عَلَى الدَّهْرِ مِعْوَانًا لِذِي طَلَبٍ يَرْجُونَكَ فَإِنَّ الْخَرَّ مِعْوَانُ



(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٦٢، ومسلم برقم: ١٧٦٤.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ٢٣١٢.

القاعدة السابعة والأربعون

٤٧. التيسير في الدين هو الأصل بضوابطه

إن الله تعالى قد نص في كتابه الكريم في مواضع كثيرة أن الدين يسر، فقال تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦].

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ - ٦].

لما أرسل النبي ﷺ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن وصَاحَهما بقوله: «يُسْرًا وَلَا تُعْسِرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنْفِرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»^(١).

وفي رواية لمسلم: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعْسِرُوا»^(٢).

وتقدم حديث الأعرابي الذي قام فبال في المسجد، وأحلى ما في الحادثة خاتمتها، وهي قول النبي ﷺ: «فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيسِّرينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرينَ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٣٨، ومسلم برقم: ١٧٣٣.

(٢) أخرجه مسلم برقم: ١٧٣٢.

(٣) ص ٦٤.

ويتجلى هذا في مواقفه ﷺ في حجة الوداع كما يقول عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو
 بَنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِمِنًى لِلنَّاسِ
 يَسْأَلُونَهُ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ فَحَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ؟ فَقَالَ: «اذْبَحْ وَلَا
 حَرَجَ». فَجَاءَ آخَرُ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ فَنَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أُرْمِيَ؟ قَالَ: «ارْمِ وَلَا حَرَجَ».
 فَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلَا أُخِّرَ إِلَّا قَالَ: «افْعَلْ وَلَا حَرَجَ»^(١).

ومن القواعد الفقهية التي نص عليها الفقهاء قولهم: «المشقة تجلب
 التيسير» وقولهم: «الضرورات تبيح المحظورات» ويضم إليها القاعدة الفقهية
 الأخرى: «الضرورة تقدر بقدرها». وذلك كي لا يتوسع بالمحظورات أكثر من
 الضرورة.

إن المنهج الإسلامي في الكتاب والسنة بأجمعها لقائم من أساسه على
 التيسير، لذلك لما أراد بعض الناس أن يشددوا على الناس أو على أنفسهم
 نهاهم النبي ﷺ كما جاء في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَا
 النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: أَبُو إِسْرَائِيلَ، نَذَرَ أَنْ
 يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ، وَلَا يَسْتَظِلَّ، وَلَا يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مُرُهُ فَلْيَتَكَلَّمْ
 وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ، وَلْيَتِمَّ صَوْمُهُ»^(٢).

ولما شدد سيدنا معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وشق على بعض الأمة في صلاتها نبهه
 النبي ﷺ لهذا، فقد جاء عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:
 أَقْبَلَ رَجُلٌ بِنَاضِحَيْنِ وَقَدْ جَنَحَ اللَّيْلُ، فَوَافَقَ مُعَاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ نَاضِحَهُ وَأَقْبَلَ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٨٣، ومسلم برقم: ١٣٠٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٠٤.

إِلَى مُعَاذٍ فَقَرَأَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ أَوْ النَّسَاءِ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ، وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعَاذًا نَالَ مِنْهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَشَكَا إِلَيْهِ مُعَاذًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا مُعَاذُ، أَفَتَأَنَّ أَنْتَ؟» - ثَلَاثَ مِرَارٍ -: «فَلَوْلَا صَلَّيْتُ بِ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ»^(١).

وقد تقدم حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما شدد على نفسه في الصيام والقيام^(٢).

ففرض التيسير ورفض التعسير منهج إسلامي مسلم به.

وفي الختام أقول: لا بد للتيسير أن يتوفر فيه شرطان:

١- أن يكون له حد أدنى، فليس هناك إطلاق في التيسير، وإلا ماعت الثوابت تحت دعواه، فعلى سبيل المثال: الصلاة لها شروط وأركان، ليس من التيسير في شيء التنازل عنها، إذ إن الشروط والأركان هي الحد الأدنى، فلا تصح الصلاة بدون الوضوء، ولا الركوع، ولا السجود.

٢- أن لا يكون بدعاً من الدين كأن يخالف الأصول الثابتة، أو ما أجمعت عليه الأمة، أو أن يكون قولاً مهجوراً شاذاً حذر العلماء منه.

ولا بد بعد كل هذا من بصيرة عند الداعية، فما يفتي به لعاجز أو مريض أو كبير أو سقيم قد يمنع منه الجلد القوي الشاب، وما يعطى من تيسير في ظرف وبلد وشدة، قد لا يفتي به في زمان ومكان غيره، وهكذا...

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٠٥، ومسلم برقم: ٤٦٥.

(٢) تقدم ص ١٧٣.

وعلى الطرف المقابل من التيسير فإنه توجد العزائم، ويمكن أن يقال:
 «للداعي أن يجنح إلى الأخذ بالعزائم في الأمر الخاص به، ولكن يفتي الناس
 بالتيسير ويرضى به منهم - ما لم يكن إثماً -».



القاعدة الثامنة والأربعون

٤٨. التفهيم لا التلقين، والدليل مع
التعليل^(١)

يقول شخص يابس كالجدران المتحركة - وقد ضل شيخه ضلالاً بعيداً - يقول: أنا وراء شيخي، ولن أغير قيد أنملة. وأستاذه المذكور له حظ كبير من عقل فرعون القائل لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ [غافر: ٢٩]، ومثل هذا الأصم عن الهدى محاسب عند الله تعالى، سيسأله ربه لِمَ لَمْ يَتَفَكَّرْ في الأصلح له في دينه!

إن التلقين في الدعوة إلى الله تعالى ليحوي مثالب كثيرة، إلى جانب بعض الإيجابيات الضئيلة التي لا تنكر، فإذا كان الملقن على قدر كبير من الوعي والفقه، ولقن غيره الدعوة من غير تفهيم، فإن المدعو غالباً ما يكون كالجدار الأملس، لا يتغير ولا يتبدل، لا إلى الخير ولا الدون، فليس هو ممن يتطور، ولا ممن يتراجع ويتقهقر، والمشكلة تكمن فيمن يلقن غيره إن كان هو في الأصل منحرفاً، أو صاحب منهج خبيث، فإن الملقن على خطر كبير.

أما منهج الحبيب ﷺ فقد كان مبنياً على التعليل لا التلقين، والتفهيم لا فرض الرأي، ولا الإلزام، ولا لغة الجبر.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا تُؤْفِّي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكْفِّنُ فِيهِ

(١) نص على هذه القاعدة الأستاذ: جمعة أمين في كتابه: «الدعوة قواعد وأصول» ص ٢١٩.

أَبَاهُ، فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَامَ عُمَرُ، فَأَخَذَ بِتُوبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُصَلِّيَ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ، فَقَالَ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠]، وَسَازِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ»، قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَى أَبَدًا وَلَا تُقَمِّ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤] ^(١).

لم تمنع صعوبة الموقف ووجود الجنازة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عما أشكل عليه، والشاهد في الحديث هو الأمر الثاني، وهو أنه كان بوسع النبي ﷺ أَنْ يَشِيرَ عَلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالسَّكُوتِ، لِيَتَّبِعَهُ دُونَ نِقَاشٍ، وَلَا سِيَمَا أَنْ الْمَوْطِنَ مَوْطِنَ جَنَازَةٍ، فَهُوَ لَا يَسَاعِدُ عَلَى التَّفْهِيمِ، بَلِ الْوَقْتُ يَقْتَضِي التَّلْقِينَ دُونَ نِقَاشٍ، وَمَعَ كُلِّ هَذَا لَمْ يَرْضَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا أَنْ يُعْطِيَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَجْهَةً نَظَرَهُ بِتَفْهِيمٍ كَامِلٍ.

وَعَنْ سَعْدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدُ جَالِسٌ، فَتَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا؟ فَقَالَ: «أَوْ مُسْلِمًا»، فَسَكَتُ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، فَقُلْتُ: مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا؟ فَقَالَ: «أَوْ مُسْلِمًا»، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ، فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي وَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «يَا سَعْدُ، إِنِّي لَأَعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةً أَنْ يَكْبَهُ اللَّهُ فِي النَّارِ» ^(٢).

(١) الحديث أخرجه البخاري برقم: ٤٦٧٠.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٢٧، ومسلم برقم: ١٥٣.

هذا درس تربوي له أبعاد عجيبة، فلولا أن النبي ﷺ يعلل لسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقفه، ويبين له العلة في إعطاء الأول وترك الآخر، لبقيت الشبهة في ذهن سعد، والكل يعلم مدى علم سيدنا سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من علم رسول الله ﷺ، فمن باب أولى إذا أورد الداعي شبهة، أو عرض له أمر، أو ذكر مسألة أن يعللها أمام من لا يحسن معرفتها، فالدليل والتعليل يزيل ما في الرأس من شُبّه، ويدخل القناعة التامة، وعلى العكس من هذا، فالإسكات وفرض الحكم لا ينجح غالبًا.

هذا وإن من التفهيم استعمال الأمثلة المفهومة والعبارات القريبة، والأمر المحسوسة، والألفاظ السهلة، وبعض علماء العربية يستعملون في هذا اليوم بعض أمثلة النحو، كقولهم: «السمن مَنَوَانٌ بدرهم» ولم يعد في زماننا - في جُلِّ البلاد - مَنَوَانٌ ولا درهم.

ولقد كان من منهج شيخنا العلامة الشيخ أحمد القلاش (ت: ١٤٢٩ هـ) رحمه الله أن يفهم الطالب المعلومة، ولقد نجح نجاحًا عجيبيًا بإيصال أصعب العلوم إلى أشد الناس جهالة، وذلك بالتفهيم والبسط، وتسهيل العبارة، ومن لطيف فعله أن غير حروف الإظهار في التجويد فجعلها مجموعة في أوائل قوله: «إن غاب عني حبيبي هَمَّيْ خَبَرُهُ» استبدلها بقولهم المعتاد: «أخي هاك علمًا حازه غير خاسر»، وجعل حروف الاستعلاء في أوائل هذا البيت:

قَد طَالَ صَدُكَ ظِلْمًا خَفَّفَ ضِرَامَ غَرَامِي

بدلًا عن جمعها في قولهم: «خُصَّ صَغُطٍ قِظ».

فمن أراد دعوة ناجحة فليكثر من التعليل، وليقلل من التلقين، ويُسلِّح المتعلم بالأدلة، وليوقفه على مواطن العلة.

القاعدة التاسعة والأربعون

٤٩. ركز على اللب المقصود لا القشر
المردود

ركز أحد الشيوخ دعوته على نوع من الحجاب السابغ الساتر، وساد الحجاب في جماعته وعم وانتشر، لكنه في وقت الهجرة إلى بلد آخر أصبح الحجاب عبئًا على جماعته، فجاء ولده واقترح تغيير الحجاب على الجماعة في بلد مهجرهم، مما يوافق حجاب المسلمات الملتزمات في مُقامهم الجديد، فاستمرت دعوتهم ولم يلقوا أذى، ولو بقيت نساؤهم على الحجاب الأول لكان لباس شهرة في البلد الحادث، وهذه المرونة والتغيير إيجابية عالية، لأن المضمون قد تحقق ألا وهو الحجاب، وأما التمسك بذاك الحجاب بعينه فهو من القشور غير المهمة.

وما أبدع قصة فتح مكة، لَمَّا كَتَبُوا الْكِتَابَ كَتَبُوا: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: لَا نُقَرِّ بِهَا، فَلَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا مَنَعْنَاكَ، لَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»، ثُمَّ قَالَ: لِعَلِيٍّ: «امْحُ: رَسُولُ اللَّهِ»، قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَحُوكَ أَبَدًا، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكِتَابَ، فَكَتَبَ: هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ...^(١).

وفي لفظ آخر للحادثة أيضًا: فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيَّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٦٩٩، ومسلم برقم: ١٧٨٣.

الرَّحِيمِ»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ أَكْتُبُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتُ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللَّهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَكْتُبُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ أَكْتُبُ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، أَكْتُبُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»^(١).

في هذا الحادثة بدا بوضوح أن النبي ﷺ اهتم بالمضمون ولم يهتم بالحرفية، فالمقصود يحصل عند كتابة باسمك اللهم، كالذي سيكون بكتابة: بسم الله الرحمن الرحيم، وكذلك: استبدال كلمة: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، بكلمة: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله.

تنازل النبي ﷺ عن أمرين اثنين، لأنهما ليسا من الجوهر، ولكنهما من المكملات.

ومن هدي النبي ﷺ في دعوته وسيرته الشريفة في حكمته التي سار عليها مواقف كثيرة، كان يركز فيها على الجوهر لا المظهر، ويأخذ اللب لا القشر، ويهتم بالمقصد والغاية كي تتحقق.

ومن أشد الإخفاقات الدعوية عندما يطرد الشيخ أو المعلم والمعلمة الطالب من أجل أمر تنظيمي: من لباس أو جلوس أو أمور لا يلتفت الشارع لها بحق، ولا أنكر ضرورة تحقيق الوسائل التنظيمية، لكن لا على حساب إبعاد الطالب وإخراجه.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٧٣١.

حدثني والدي الشيخ محمد جميل عطار حفظه الله، أن شيخني وشيخه الشيخ عبد الله سراج الدين الحلبي الحسيني (ت: ١٤٢٢ هـ) لما افتتح المدرسة الشعبانية لحفظ القرآن كان لا يعنف طالبًا على حاله، فمن صعب عليه حفظ المتون النثرية رضي منه بالشعرية، ومن لا يطيق حفظ كمية كبيرة رضي منه بالقليل، ومن لا يستطيع الحضور للمسجد أرسل له من يستمع له، ومن تعذر حضوره كل يوم خصص له أوقاتًا متباعدة تناسب وضعه، وحصل من تسامحه هذا خير كبير، وتخرج في مدرسته حفاظ كثيرون، وهم يملؤون أطراف البلد الآن، ومنهم من تفرقوا في البلاد، والناجح في تربيتهم وتثبيتهم على سكة الحفظ هو شيخهم المبارك رحمه الله.



القاعدة الخمسون

٥٠. التربية لا التعرية^(١)

كان شيخنا الشيخ أحمد القلاش (ت: ١٤٢٩ هـ) رحمه الله يجلس مع الطلبة في حلقة القرآن ويستمع لهم، وعندما يغلط الطالب كان من منهج الشيخ ألا يرد الطالب بالصحيح مباشرة، إنما يقول له مثلاً: انظر إلى حركة حرف كذا، لاحظ ما في الكلمة من مدود وأحكام... وهكذا، وكان من أقواله التي يرددها: «السُّنْدُ يَعْلَمُ، والرَّدُ يَحْطُمُ».

إن هذه لقاعدة صغيرة التطبيق في حلقة القرآن، وهي في سعة الدعوة أوسع وأوسع، فكيف بالتعرية إذن؟ كيف بالزجر والتوبيخ والتقريع وإساءة الألفاظ، والذين أخطؤوا أمام رسول الله ﷺ كثيرون، فما من موقف إلا وترى النبي ﷺ هادياً داعياً معلماً، ويستطيع أن يقلب الموقف التعليمي إلى موقف الفضيحة والتعرية ونشر المثالب، ولم يكن ليعمل هذا ﷺ.

قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرُ وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ قَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاجٍ فَإِنَّ بِهَا ظِعِينََّةً وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا» فَاَنْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا حَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ فَقَالَتْ: مَا مَعِيَ مِنْ كِتَابٍ فَقُلْنَا لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَتُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَاتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أَنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ

(١) نص على هذه القاعدة الأستاذ الجليل جمعة أمين في كتابه: «الدعوة قواعد وأصول» ص ٢٢٥.

أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ أَمْرًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ قَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا، وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ صَدَقَكُمُ»، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبَ عَنْقَ هَذَا الْمُنَافِقِ قَالَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»^(١).

لقد كان بوسع النبي ﷺ أن يقتل حاطبًا على هذا الموقف، أو يعزره، أو يوجّهه، ومع ذلك، فما بدر منه ﷺ إلا تأليف قلبه، وقبول عذره، وبما أن الحكمة اقتضت أن يفتح به الأمر وأن ينشر هذا السر فإن النبي ﷺ قد فعل ذلك، وقرن معها كلمات تفرض على الصحابة صفاء القلب تجاه حاطب.

وتقدمت رواية عمر بن الخطاب في قصة شارب الخمر^(٢)، وها أنا ذا أذكر رواية صحابي آخر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِسَكْرَانٍ، فَأَمَرَ بِضَرْبِهِ، فَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِيَدِهِ وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِنَعْلِهِ وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ رَجُلٌ: مَا لَهُ أَخْزَاهُ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٠٧، ومسلم برقم: ٢٤٩٤.

(٢) ص ١٤٣.

(٣) أخرجه البخاري برقم: ٦٧٨١.

وأختم الحديث هنا بموقف رائع حصل بين النبي ﷺ وطفل، وبقي الموقف في ذاكرة الطفل إلى أن حدث به وهو كبير، قَالَ أَنَسُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ! وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صَبِيَّانٍ وَهُم يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ: فَتَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «يَا أَنَسُ، أَذْهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ أَنَسُ: وَاللَّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ، مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لَشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لَمْ فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، أَوْ لَشَيْءٍ تَرَكْتُهُ هَلَّا فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا^(١).

هذه الحوادث بمجموعها تعطي صورة رائعة عن التربية، مع بيان الخطأ دون السكوت عنه، ولكن دون الإساءة للطفل والطالب والمخطئ.

وكم تحتاج المدارس الدعوية إلى مراجعات، لما يُرى من صريح مواقف بعض المربين، التي لا تخرج عن دائرة العقوبة والإهانة والإغلاظ والشد على المخطئ، وتتحول من ساحة التربية الرحبة، إلى دائرة التعرية الضيقة المنقّرة، وكلما طُرح الحديث مع هؤلاء وأمثالهم كان الجواب اليتيم الوحيد دائماً حاضراً على ألسنتهم: «الشدة تصنع الرجال»، ناسين أو متناسين المواقف النبوية المتكاثرة التي فيها اللين الذي ربي الرجال، والعطف الذي خرّج الجبال، والأبوة التي مكنت الصداقة، والرحمة التي شيدت أسمى المباني.

إن الإنسان ليجتاج إلى إعادة النظر الدائمة لكل موقف مع التجرد عما هو عليه، فمن الأخطاء أن من عرف في نفسه الشدة في كل المعاملات

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٣١٠.

استشهد بمواقف سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ناسياً أو جاهلاً بأن مواقف عمر كانت في الشدة بدين الله، ومع المعتدي والمحارب والساخر، وإلا فمواقف عمر نفسه كانت مع المؤمنين مواقف رحمة لا عذاب، ولا محق ولا بلاء، ولا إرهاب ولا تنفير، كانت موقف التحبيب والتأليف والجمع للكلمة، ولا أصرح من موقفه الذي تمنى أن يكون أولئك القوم قد أسلموا^(١).

وما أشبه من يغلظ على أحبابه وإخوانه ثم يستشهد بحوادث وشخصية عمر، بالذي يدعو على المؤمنين مستشهداً بدعاء رسول الله ﷺ على الكافرين! فشتان ما بين الموقفين.

وبعد كتابة ما تقدم عثرت على قصة للأستاذ عمر بهاء الدين الأميري (ت: ١٤١٢ هـ) رحمه الله، فقد ذكر أنه كان متوجهاً للتغذية بالشيخ البشير الإبراهيمي (ت: ١٣٨٥ هـ) رحمه الله في الجزائر، وتوقفت الطائرة ليلة في جنيف، وكان يشرب البرتقال وحيداً عندما جلست إحدى المضيفات طالبة منه أن يقدم لها كأساً من الخمر، فقال لها: معاذ الله.. كيف أقدم الأذى للناس وقد صنت عنه نفسي!

قالت: وماذا يهمك من أمري؟

قلت: نحن من أسرة واحدة.

عجبت وسألت: كيف؟

قلت: أسرة الإنسانية، إنها كلها أسرة المسلم.

(١) تقدم كلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كاملاً في حادثة فتح تُسْتَرَص ١٥٦.

قالت: ومن أنباك أني إنسانة؟ لقد أنسيْتُ ذلك من زمن طويل!

قلت: بل إنسانة، والمسلم لا ينسى الحق.

قالت: دعك من إنسانيتي.. أنا هنا لأمارس حيوانيتي..!

قلت: وليس مكانك هنا! قالت: وأين؟

قلت: إلى جوار سرير طفل، في كنف زوج.

فأخذتها حرقة، وتساقطت من عينيها دموع، وتمتمت: ما أرحمك وما أظلمك! ذكرتني بإنسانيتي فأحييتني حتى أبكيتني. ولكن ما الجدوى؟ إنسانة ولا أستطيع أن أعيش إنسانيتي ربع ساعة^(١).



(١) أفدت هذا النقل من كتاب: «قل هذه سبيلي» للعالم الفاضل: أحمد معاذ الخطيب حفظه الله، ص ٦٩، وقد عزاه إلى كتاب الإسلام في المعتزك الحضاري للأستاذ عمر بهاء الدين الأميري رحمه الله.

القاعدة الحادية والخمسون

٥١. علّم المحكم قبل المتشابه،
والمختلف فيه بعد المتفق عليه.

في عصرنا هذا أناس تصدروا للدعوة، وجعلوا يطرحون أمام الناس المشتبهات، وما لا يرقى إليه علمهم، ولا تتسع له عقولهم، مما هو كلام أهل الاختصاص، فانبهر بعض الناس بهم، وظنوا أنه كلام جديد في العلم، وأنها نظرات ثاقبة لم يسبق إليها متكلمها، بما أنه شيء لم يطرق أسماعهم من ذي قبل، ولما انبهر الحاضرون بكلامهم، وأذعنوا لهم بالعلم والفهم والتقدم، أصاب أولئك الدعاة غرورٌ عجيب، ولفحتهم لومة فنتة الجماهير، وما فقها أن شهادة العامة للطبيب بأنه فهم شهادة غشاء، تذهب مع أول نسمة للهواء، ولو وضعت شهادة كل هؤلاء العامة بكفة، وشهادة أستاذ خبير حاذق واحد في كفة لرجحت شهادة الواحد على المجموع، ولم يدر المساكين أن القاعدة تقول: «لا يُهْمُّكَ ما الذي قِيلَ فيه، بل يُهْمُّكَ مَنْ الذي قال فيه».

وماذا عن نتيجة الحضور عند أولئك الشُّدَّاذِ في الدعوة؟ والله يا سادة لقد دخل العصاة إلى حِلَقِ أولئك وهم المسرفون على أنفسهم البعيدون عن الالتزام والسلوك، ولكنهم بعد فترة أصبحوا مغرورين ببضاعتهم، يظنون أنهم هم المثقفون في دين الله، غاية التزامهم وسلوكهم أنهم يحفظون من العلم الشك في كل الثوابت، والحكم بالخرافة على أجزاء كثيرة من الدين، وأصبحوا يقيسون الدين على عقولهم، فما قَبِلَتْه عقولهم فهو الصحيح - وما

أقلّه - وما رفضه فإنه يرده بأقذع الألفاظ، وأسوأ الأدب.

لقد كان هذا البعيد عن شرع الله بعيد التزام، وعاصي شهوات، ولكنه أضحى مثقف تشكيك في دين الله، وناقد الثواب بدعوى الحرص على الشرع، كان أيام جاهليته يجلس أمام العالم متواضعًا مقرًا له باختصاصه، أما اليوم فإنه يحتقره ويجزم أن هذا العالم كاذب ملبس في الدين، وأنه خدم أعداء الله بالخرافات في دينه، مع المقارنة مع نفسه بأنها الغيورة على الشرع، والمنصفة للدين، والمصفية للدعوة من الشوائب.

لقد أصاب الدمار عجلة سير هؤلاء المضللين، وما وصلوا إلى حقيقة الدعوة، لأنهم ابتدؤوا دعوتهم مع الغر الجديد بمختلف الأقوال، وشعبوا عليه الفتاوى، وعلموه الردود قبل الرسوخ، ودربوه على الجرأة في الرد على العلماء الكبار قبل أن ينال التأصيل العلمي الدقيق، فضل المسكين وأضل، وربما انقلب وشعر أن الالتزام بالدين يعني التشوش وعدم الاستقرار، وقد يجد في الحالة الماضية التي كانت من غير التزام - على علاقتها - أجود من الحالة الجديدة.

أرأيتم العلم غير النافع، والدعوة إذا قدمت للجاهل انطلاقة من الشبهات قبل المحكمات؟

إن من منهج الحبيب المصطفى ﷺ أنه يسهل العبارة والتكليف على الجديد، وقد سلك هذا المسلك العلماء الربانيون بعده، ولا سيما بعد أن استقر الأمر على وجود المذاهب الفقهية، وهي لها مدارسها التي أراد الله تعالى الاختلاف والتنوع، فكان من منهج علمائنا أنهم يعطون غير المتخصص

بالعلم ما هو متفق عليه، ويحذرون من تشويشه بالمختلف فيه، كما يلقنونه المحكم، ويحذرون مواطن المتشابه.

أخرج البخاري (ت: ٢٥٦ هـ) في صحيحه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]» الآية^(١).

ويستأنس بما روي عند أحمد (ت: ٢٤١ هـ) في مسنده بسند ضعيف: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، فَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، أَوْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»^(٢).

وجاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: «لَا نَدْعُ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا ﷺ لِقَوْلِ امْرَأَةٍ لَا نَذَرِي أَحْفَظْتَ أَمْ نَسِيتُ»^(٣).

ولكن القاعدة الأصل هي ما جاء القرآن بالنص عليه أولاً، ألا وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٤٨٥.

(٢) أخرجه أحمد برقم: ١٤٦٣١، وقال محققو المسند: «إسناده ضعيف»، وبنحو حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ روي من كلام عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند عبد الرزاق الصنعاني في «مصنفه» برقم: ١٠١٦٢.

(٣) أخرجه الترمذي برقم: ١١٨٠، والحديث صحيح، وانظر «صحيح مسلم» ١٤٨٠.

وَأَتَّبِعْهُ تَأْوِيلَهُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَالرَّسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ ۚ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۚ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ [آل عمران: ٧].



القاعدة الثانية والخمسون

٥٢. حدث كل مدعو بما يرقى إليه عقله، وإياك وشدة الإغراب عليه

لقد أولع أقوام بسلوك طريق الغرائب والفرائد، وما يشد الأنظار ويلفت الانتباه، وهو طريق خطر، إذ الغالب على الدعوة أنها دعوة معروفة مألوقة، وعدد الأحاديث التي تشد انتباه العامة، وتؤثر في وجدانهم أقل من الأحاديث التي تخاطب العقل والقلب، وتحرك العاطفة، وتجعل العقل يتخذ الموقف الصحيح والعلاج القاطع.

لقد كان السلف يكرهون الحديث فيما لا تبلغ إليه عقول البشر، قال سيدنا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ»^(١).

وَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟»^(٢). ومن لطيف صنع الإمام البخاري (ت: ٢٥٦ هـ) رحمه الله أنه بوب لهذا الحديث الموقوف بقوله: «بَابُ مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةً أَنْ لَا يَفْهَمُوا».

ومن هذا القبيل التحديث بالمعقولات، وعدم الإيغال بالمغيبات فضلاً عن غير المعقولات، ولما غاص بعض الشيوخ بالكلام عن الكرامات، وخوارق

(١) أخرجه مسلم برقم: ٥.

(٢) أخرجه البخاري موقوفاً على علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برقم: ١٢٧.

العوادات جاء من ردها جملة وتفصيلاً، بل رد الأحاديث الثابتة في المعجزات، وكذب الأخبار التي ظاهرها يتعارض مع ما تراه عيناه، كشجار موسى وملك الموت^(١)، ونحوها، وأول أخبار القرآن الكريم، كالإسراء والمعراج، والطير الأبايل.

لعل حديث الحصين والد عمران يبين منهج رسول الله ﷺ في الكلام مع المسلمين الجدد، أو من يريد الإسلام، حيث يطرح المعقولات قبل المغيبات، فقد روى الترمذي (ت: ٢٧٩ هـ) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَيٍّ: «يَا حُصَيْنُ، كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟» قَالَ أَيُّ: سَبْعَةً سِتَّةً فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟» قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «يَا حُصَيْنُ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ»، قَالَ: فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصَيْنٌ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمْنِي الْكَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي، فَقَالَ: «قُلِ اللَّهُمَّ أَهْمَنِي رُشْدِي وَأَعِزَّنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي»^(٢).

ويحسن هذا المنهج النبوي أيضاً مع أي مدعو حديث عهد بالالتزام الديني.

(١) وهو حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ فَقَفَا عَيْنُهُ، فَزَجَعَ إِلَى رَبِّهِ فَقَالَ: أُرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ! قَالَ: قَرَدَ اللَّهُ إِلَيْهِ عَيْنُهُ وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: يَضَعُ يَدُهُ عَلَى مَنْ تَوَرَّى، فَلَهُ بِمَا غَطَّتْ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ. قَالَ: أَيُّ رَبِّ، ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ. قَالَ: فَلَا أُنْ. فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمِيَّةً بِحَجَرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَلَوْ كُنْتُ نَمَّ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ تَحْتَ الْكُتَيْبِ الْأَخْضَرِ». وقد أخرجه البخاري برقم: ١٣٣٩، ومسلم برقم: ٢٣٧٢، وهذا لفظ مسلم، وليس عند البخاري لفظ: «ففقاً عينه».

(٢) أخرجه الترمذي برقم: ٣٤٨٣، وقال: «حديث غريب».

ومن عجائب ما ترى الأعين إتيان بعض العوام إلى الداعي ليصلح حاله،
إذا به يضل ويزداد بعداً، وبعد التفتيش عن السبب ترى أن الداعي قد حدثه
بما لا يحتمله علمه ولا يتسع له عقله.

ومن القديم قالوا: طعام الكبار سُمٌّ للصغار، وإقحام حديثي العهد
بالتدين في تخصصات العقيدة، ومعالي علوم الحديث، وأزقة متخصصي
السيرة شر لا يستهان به، وما يصلح تداوله بين العلماء لا يصلح بحال أن
يطرح على العوام، والذي يلقي الطفل الرضيع في النهار الجارف خير ممن يدفع
العامي للنظر في دقائق العلم مما لا تقوى عليه قواه، ولا يرقى إليه علمه.



القاعدة الثالثة والخمسون

٥٣. وازن في حديثك بين الوعد والوعيد
الديني والأخروي^(١).

التوازن هو رؤية المحاسن والمثالب في لوحة واحدة، مع إعطاء نسبة لكل منهما بقدر حجمه، دون وضع المجهر على جزء دون آخر.

ولا غرابة أن ترى الطبيب وهو من يعطي أحد المرضى الدواء المهدئ، والآخر الدواء المنشط، يتخرج من وصف الدواء المسهر لمن طار عنه النوم أو عانى من اضطراب نومه، كما يمتنع تمامًا من وصف العقاقير التي تجلب النوم لمن قتل النوم يومه وليله.

وكذلك التوازن عند الداعية في حديثه بين الوعد والوعيد الديني والأخروي، فهو يحذر من يدعو من البطش الديني والأخروي، ويعدّه بالمكاسب الدنيوية والأخروية ولا يقتصر على ثواب الآخرة دون الدنيا، ولا العكس، إلا إن دعت الحاجة، فهذا علاج خاص لا يعمم.

لذلك لم يبعث الله تعالى نبيه مبشرًا فحسب، كما لم يرسله منذرًا فقط، إنما جعله نبي الرحمة والملحمة، بشيرًا ونذيرًا، وقد وازن في كتابه بين البشارة والنذارة.

والنفس البشرية غالبًا ما تتعظ بالذي أمامها أكثر من الذي لا تراه،

(١) من فوائد شيخنا الشيخ جابر مصري وفقه الله.

فالذي تحذره من بطش دنيوي إضافة إلى الأخروي ينفذ الوعظ إلى قلبه أسرع من الاقتصار على التحذير من عذاب الله فقط.

وهذا ما خلّده الله تعالى من نجاح رجل مؤمن دعا قومه: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ [غافر: ٣٠ - ٣٣].

فابتدأ الرجل بوعظهم بحلول العذاب الدنيوي عليهم، وانتقام الله تعالى منهم كما فعل بالأمم التي سبقتهم، ثم حذرهم من العذاب الموعود به يوم القيامة.

فإذا ما حذرت غشاشًا من الغش، فابدأ بخسارة الدنيا، وأن الناس إذا عرفوا غشه هجروه وقَلَّوْهُ، ولم يتعاملوا معه، ثم في الآخرة عذاب الله، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ غَشَّ، فَلَيْسَ مِنِّي»^(١)، وقد تعكس الأسلوب إذا ما رأيت حبَّ الله أظهرَ في الرجل من حب الدنيا.

فلا تقتصر في خطابك للناس على ثواب الآخرة، ولا عقابه فقط، بل اخلط معه الثواب الدنيوي والعقاب الدنيوي، وذكر بالمتع والمكاسب والسعادة الدنيوية أيضًا، وفي القرآن أمثلة كثيرة لمن وعد بالمكاسب الأخروية، ومن وعد بها مع المكاسب الدنيوية، ومن وعد بالدنيوية فحسب، وهذا يختلف وتوجه المدعو وحاله:

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٠٤.

أما من بَشَّرَ بالجزاء الآخروي من ثواب وعقاب، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ۖ﴾ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِيَكَم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُحِب دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۗ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿الأحقاف: ٢٩ - ٣٢﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ أَن أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ﴾ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّضْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۚ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿نوح: ١ - ٤﴾.

ومثله ما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ» لِيُطَوِّنَ قُرَيْشَ، حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِّيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهُبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهُبٍ: تَبَّ لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا، فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۖ﴾ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ﴿[المسد: ١ - ٢]﴾^(١).

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٩٧١، ومسلم برقم: ٢٠٨.

وأما من وعد بمنافع الدنيا مع الآخرة، فقد قال الله تعالى في مطلع سورة نوح، حكاية عن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وأما الوعد بالمكاسب والخسائر الدنيوية فحسب، فقد جاء في القرآن الكريم حكاية عن الرجل المؤمن: ﴿يَقُومُ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وما أسحر هذا النوع من الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَحْرِيقِ نُجُجِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، فقد سماها تجارة، وهي النجاة من عذاب أليم.



القاعدة الرابعة والخمسون

٥٤. كلما أكثر من الدعوة عادت على نفسك بالخير والثبات^(١).

إذا شعرت بالتقصير مع ربك فكثف عملك في الدعوة، وضاعف جهودك فيها، فإن من أنواع العلاج الذي يصفه العلماء للثبات على التقوى أن يعمل المسلم في الدعوة مبشراً، وأن يحمل رسالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها ناشراً، فإن من جملة الأمور التي تردع المسلم عن الخطايا، وتزيده في الطاعة والقربات دعوة الناس، فإن الحبي يستحي أن يدعو غيره إلى خُلُق وهو غير متخلق به، أو ينهى عن رذيلة وهو متصف بها، ولئن زَلَّت قدمه بتقصير في واجب، أو انتهاك لمحظور فإن كلامه مع الناس سيتدرد في نفسه ويعود عليه لوماً وتأنباً.

ومن أقرب الآيات التي تحث المسلم على الالتزام بما يدعو إليه قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقول النبي عليه الصلاة والسلام: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَيَنْدَلِقُ أَفْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٍ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، قَالَ: كُنْتُ أَمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَا

(١) من فوائد شيخنا الشيخ جابر مصري وفقه الله.

آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَآتِيهِ»^(١).

وقد وردت آيات في ذم من يعلم، ولا يعمل بما علم، قال لي فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني (ت: ١٤٤٢ هـ) رحمه الله: إن الله لم يضرب في القرآن الكريم مثلاً لأحد كما ضربه لمن يحمل العلم ولا يعمل به، فقد شبهه مرة بالحمار، ومرة بالكلب، قال الله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَاراً بِيَسْ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

وقد قال الإمام أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) رحمه الله وهو يعدد وظائف المرشد المعلم: «أن يكون المعلم عاملاً بعلمه، فلا يكذب قوله فعله؛ لأن العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار، وأرباب الأبصار أكثر، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد، وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك، سخر الناس به واهتموه، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه، فيقولون: لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به، ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين، والظل من العود، فكيف

(١) أخرجه البخاري برقم: ٩٦٣، ومسلم برقم: ٢٩٩٢.

ينتقش الطين بما لا نقش فيه، ومتى استوى الظل والعود أعوج، ولذلك قيل في المعنى:

أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلَّمُ غَيْرُهُ هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ
أَبْدَأُ بِنَفْسِكَ فَأَنْهَهَا عَنْ غِيَّهَا فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ
لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

وقال الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤]
ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل، إذ يزل بزلته عالم
كثير ويقتدون به، «وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَهَلْ جَبَّتْ بِهَا»^(١)،
ولذلك كان بعض أهل العلم يقول: «قصم ظهري رجلان: عالم متهتك،
وجاهل متنسك، فالجاهل يغر الناس بتنسكه، والعالم يغرهم بتهتكه»^(٢).

أختم بقول الحافظ ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١ هـ) رحمه الله: «علماء
السوء جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى
النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: «هلموا» قالت أفعالهم: «لا تسمعوا
منهم فلو كان ما دعوا إليه حقًا كانوا أول المستجيبين له» فهم في الصورة
أدلاء، وفي الحقيقة قَطَّاعُ الطرق»^(٣).



(١) أخرجه مسلم برقم: ١٠١٧.

(٢) عزاه في «إحياء علوم الدين» ١: ٥٨ لسيدنا علي عليه السلام، ولم أعثر على إسناد مروي له،
وقد عزوته لبعض أهل العلم بما أن الغزالي رحمه الله نقله مقررًا له، وهي حكمة جيدة،
بغض النظر عن قائلها.

(٣) «الفوائد» ص ٦١.

القاعدة الخامسة والخمسون

٥٥. نوع في خطابك المباشر وغيره ولا
تقتصر على أحدهما

تفرض الحكمة على الداعية أحياناً أن يوجه الخطاب مباشرة إلى من أخطأ، أو لم يعلم الصواب، كما تُجبره أحياناً أخرى أن يعدل عن الخطاب المباشر إلى المُبْطِن، ومن الدعاة من لبس الثوب الأول في كل أحيانه، ومنهم من تلبس بالثاني دائماً، ولكن الحكمة تقتضي التنويع، فما يصلح له التصريح والمباشرة لا تحققه المواربة، والعكس صحيح.

إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي صَلَاةٍ وَقُمْنَا مَعَهُ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا، فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ: «لَقَدْ حَجَرْتَ وَاسِعًا» يُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّهِ^(١).

مثل هذا الرجل لا يمكن أن يُنصَح من وراء ستار، ولا بالإشارة، لأن الأمر لا يتعلق به فحسب، ولكنه يتعلق بأناس قد دعا عليهم ألا يرحمهم الله، فلا بد من الخطاب المباشر الصريح اللطيف.

ولكن هذه الحالة ليست هذه الدائمة السائدة، فهناك حالات يتيقن الداعي بوصول كامل رسالته مع سلوك جادة خلفية تؤدي الغرض نفسه، ولا تزعج أحداً.

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٠١٠.

فقد جاء عَنْ عَائِشَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَا: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا^(١)، لقد وصلت الرسالة صريحة للأمة وهي التحذير من اتخاذ القبور مساجد، وذلك من طريق خفي، وهو ذكر أخطاء بعض الأمم الماضية. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(٢).

لا شك أن النهي للأمة المحمدية ألا تتخذ القبور مساجد، وأنه عمل مشين، ويكفي من النبي ﷺ أن يذكر لمن حوله شناعة فعل من الأفعال، وذلك بلعن جانيه والدعاء عليه، ليفهم من حوله النهي عن هذا الفعل. إنه ليسع الداعي إذا رأى عوجًا يحتاج للإصلاح أن يطرح حديثًا للتدارس بينه وبين عالم آخر، يتدارسان المسألة ليسمع الجالسون الحكم، ويصلهم النصيح غير المباشر، كما أرسل الله تعالى جبريل.

فقد ثبت عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٣٥ و ٤٣٦، ومسلم برقم: ٥٢٩ عن عائشة فقط.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٣٧، ومسلم برقم: ٥٣٠.

رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحَجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوُلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(١).

ما أجمل العبارة الأخيرة: «أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» فهي تهمس في أذن الدعاة أن نوعوا بأساليبكم.



(١) أخرجه مسلم برقم: ٨.

القاعدة السادسة والخمسون

٥٦. سخر دعوتك فيما يغير السلوك، لا
ما تطرب له الأذن

كان أحد الخطباء أيام حرب الأمريكان على العراق قبل سنوات يخرج إلى المنبر ويصف للناس الجراح والفتك في العراق الجريح، يصور للناس بدقة هتك الأعراض، وفقدان أدنى مقومات الحياة، وشدة الوطأة على الضعاف والمساكين والأطفال، وهو في بلد يحظر على الناس التفكير بذرة من التبرع أو المساعدة، وكان يخرج كل شخص من خطبته وهو مشحون بالهموم والأحزان، ويرى نفسه أنه لا حيلة له ولا قوة، لا من حيث تغيير الحال المادي، ولا السياسي ولا العسكري ولا غيره.

في الوقت الذي يخاطب خطيب في مسجد قريب منه ويتكلم عن وقعة صفين والجمل، وكيف توجه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للغزوة، ومن الذي أحضر الماء، ومن الذي مات ولم يستطيعوا إسعافه، وهكذا يسرد الغزوات القديمة بدقة وعناية.

وخطيب ثالث في مسجد آخر يسرد قصص صفوة السلف - والله أعلم بصحة الكثير منها - في قيام الليل وصيام النهار بشيء مفرط ينكر الشرع بعضه، وكثير من هذه القصص أقرب إلى الخيال من الواقع، ففي خطبته حكايا الذي مات لأنه فاتته الساعة الأولى من التهجيد، وهو الذي اعتاد أن يقوم الليل إلا قليلاً، والأصحاب الذي عزوه لثلاثة أيام لأنه فاتته تكبيرة

الإحرام مع الإمام مرة، والعالم الذي سجد لله سجدة فنبت الحشيش على ظهره، والآخر من لم يخرج من بيته قرابة سنة لكسب الوقت، والناس في خطبة هذا الخطيب يصيحون ويتميلون طربًا، ولا أدري: أما خطر ببال أحدهم كيف يصلي الجمعة من لم يخرج من بيته سنة؟ وهل هذه الأفعال من هدي النبي ﷺ وأصحابه وأهل بيته؟

الذي أحب أن أصرح به عن هؤلاء الخطباء وأشباههم قولي: إن كل واحد منهم يتكلم في دائرة ما يطرب له الناس، لا ما يعدل سلوكهم.

ناشدتك الله، ما الذي جناه هذا البائس الذي حضر خطبة المتكلم عن أحداث العراق وهو غير قادر على تقديم أدنى المساعدات سوى الدعاء، ومثله الثاني والثالث؟

قد يقال: هذا من المهم ليعيش المسلمون أخبار بعضهم، سواء القديمة أو الحديثة.

أجيب: سأقبل هذا الكلام ولكن اسمح لي أن أقول لك: إن كثيرًا من البكائين على خطب هؤلاء ممن يأكل الربا، وفشا فيهم الزنا، والسرقة، وأكل ميراث الأرحام، وبعضهم لا يعرف أساس الدين وبدهيات العلم.

ولو أن كل هؤلاء الخطباء تكلموا في حجرة التأثير، بحيث يخرج كل واحد من المصلين وباستطاعته أن يغير من سلوكه وأحواله ووضع أسرته وصلاح دينه لكان أولى، ولا رتقى حال المسلمين مرحلة بعد أخرى.

وسأكتفي بمثال رآته عيناى، وشد قلبي، وأثر في نفسي بعد مضي

عقدين من الزمن، ألا وهو شيخنا العلامة الداعي إلى الله الشيخ محمد عوض (ت: ١٤٣٠ هـ) رحمه الله، الذي ما جلس بمجلس إلا وتكلم بما يؤثر في حال الناس، وما خرج أحد من مجلس إلا وهو يستطيع أن يتقرب إلى الله بما سمعه من الشيخ. رحم الله شيخنا وأسكنه مع النبيين.



القاعدة السابعة والخمسون

٥٧. صنف الناس في دعوتك تصنيفاً
دقيقاً، واعمل على تحسين كل صنف
درجة واحدة.

من أجمل الفوائد التي أفدتها، أن الناس خمسة أصناف:
مؤيد، موافق، محايد، مخالف، معارض، وكل واحد من هذه الأصناف على
أحد صفتين:

إما قادر، أو غير قادر.

وأحب أن أقرب صورة حال كل واحد من هذه الأصناف:

المعارض: يختلف معك في الهدف، وهو في صف من يعمل ضدك.

المخالف: يختلف معك في الهدف، وليس له تحرك.

المحايد: لا هو معك ولا عليك.

الموافق: يتوافق معك في الأهداف لكنه لا يعمل معك.

المؤيد: موافق لك في الأهداف وله حركة معك.

ولدى العمل الدعوي تُرتكب أخطاء عدة عند غياب بوصلة هذا
التصنيف، منها:

الخلط بين مراتب هذه الأصناف، وعدم التفريق بين المخالف
والمعارض، أو بين المؤيد والموافق، وأشباهها.

محاولة العمل على الأصناف الثلاثة: المحايد، والمخالف، والمعارض، لنقلها إلى مؤيد، وهذا خطأ، إلا في حالات نادرة.

ضياح الموازنة بين القادر وغير القادر.

وسأوضح هذا في الشرح الآتي:

اعرف المدعو من أي صنف من الأصناف هو؟ وعندها اعمل معه برنامجاً دعوياً ينقله إلى رتبة واحدة أعلى فقط، فإذا تحققت فعامله مع أبناء صنفه لنقله إلى رتبة ثانية فقط، وهكذا دواليك، فيعمل على المعارض لنقله إلى مرتبة المخالف فقط، وهذه خطوة رائدة في تحسين العمل، وإنجاز دعوي مهم، ومثله العمل مع المخالف لنقله إلى محايد، كما الشغل على المحايد ليصبح موافقاً، والأسهل منها نقل الموافق إلى مؤيد، وليس بعسير أحياناً أن تطلب من الشخص الانتقال من مرتبة إلى الترتي رتبتين، ولكن ما أشق العمل وأوعره عندما يخاطب المعارض ليصبح مؤيداً.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلَتْهُمْ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَاذَا تَظُنُّ قُرَيْشُ، وَاللَّهِ لَا أَزَالُ أُجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ تَنْفَرَدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ»^(١).

الحديث فيه الصراحة باستحباب انتقال العدو من معارض إلى مخالف،

(١) أخرجه أحمد برقم: ١٨٩١٠، وحسن المحققون إسناده.

وليست هناك مشكلة بأن يبقوا على الاختلاف معه في الدين لكن دون معارضة وقتال وعنف، فإن قاتل العدو الخارجي النبي ﷺ فقد تم للمعارضة قريش ما يريدونه، وانضموا إلى العدو، وأصبحوا قوة معه، وإن تم الأمر بدخول المشركين الآخرين وأصبحوا في صف رسول الله ﷺ فهو قوة لقريش، وعندها تدخل قريش في الإسلام لأنه قوة.

ولكن التصنيف الثاني الذي تجب مراعاته هو التفريق بين القادر وغيره، فلو تعارض عند الداعية شخصان يريد دعوة أحدهما، فليُنظر إلى السلم السالف الذكر، ولكن مع مراعاة القدرة وعدمها، فالمعارض غير القادر أخف من المخالف القادر، والحيادي غير القادر لا فائدة منه، أما المخالف القادر ففي إدخاله إلى قفص الحياد إنجاز باهر، وهكذا...

فلو حضرت في مجلس كبير، ولديك أخلاط من الناس، فاعمل على تقديم كل صنف إلى درجة واحدة، مع المراعاة التامة لكون المرء قادرًا أو غير قادر.

وما أوضح هذا التدرج في صورة تخيير المشركين المحاربين قبل بدء الغزو بأحد الأمور الآتية: إما الإسلام وهو الموافقة، وإما الحرب أي: المعارضة، وإما الجزية وهي: المخالفة والحياد.

ولما سأل علي رضي الله عنه رسول الله ﷺ: عَلَى مَاذَا أَقَاتِلُ النَّاسَ؟ قَالَ: «قَاتِلُهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»^(١).

(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٤٠٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا الموقف من النبي ﷺ هو إشارة لسيدنا علي رضي الله عنه أن أقصى درجات الانتقال بالكافرين من المعارضين إلى الموافقين، وواضح في ذهن سيدنا علي رضي الله عنه أنه توجد درجات تحتها مقبولة، فلهم إن لم يرضوا بالموافقة أن يرضوا بالحيداد، وهو إعطاء الجزية ويحسونهم بأموالهم وأهلهم، وتبقى صفة الاختلاف معهم في الدين.

على أنني لا أستطيع أن أنكر أن هناك فرصاً خاصة تجعل الداعي يرى سهولة انتقال شخص عدة درجات دفعة واحدة، كما حصل مع النبي ﷺ في القصة الآتية.

وأدع الكلام لسيدنا جابر رضي الله عنه الذي غزا مع النبي ﷺ غزوة ذات الرقاع، فدنا أحد المحاربين من النبي ﷺ وأراد قتله، ثم انقلب الموقف على العدو، فما كان من النبي ﷺ إلا أن عرض عليه الإسلام، وحاول قلبه من عدو محارب، إلى موافق مسالم، وعندما لم يرض بالإسلام رضي منه النبي ﷺ أن يكون مخالفاً من حيث الدين، محايداً بل موافقاً من حيث الخلق والإكبار والإعجاب بشخصية النبي ﷺ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: عَوْفُ بْنُ الْحَارِثِ حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللَّهُ»، قَالَ: فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السَّيْفَ، فَقَالَ لَهُ: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟» قَالَ: كُنْ خَيْرًا مِنِّي. قَالَ: «تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَعَاهِدُكَ عَلَى أَنْ لَا أَفَاتِلَكَ وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ، قَالَ:

فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ^(١).

فاحرص على تحسين مستوى كل شخص درجة واحدة، وإياك واستهدف الانقلابات، فإن نتائجها قليل، ونجاحها هزيل.



(١) أخرجه ابن حبان برقم: ٢٨٨٣، والحديث صحيح.

القاعدة الثامنة والخمسون

٥٨. وسع صدرك لمن سألَكَ، وشجعه على الاستفسار، والنقاش والحوار.

يختلف الناس فيما بينهم في القوة والضعف، والإقدام والإحجام، فمن الناس من يشتري السؤال والحديث والنقاش، ومنهم من لو سحب بالسلاسل لم يجرؤ على السؤال فضلاً عن الانتقاد.

وأحدى سمات نجاح الداعي الموفق أن يشجع المدعويين على السؤال عن دينهم، ولا يقلل من شأن أي استعلام، فضلاً عن استعمال السخرية والتحقير والتلهي والانشغال عن سؤال السائل وأخواتها.

لقد كان من منهج صاحب الرسالة ﷺ أن يشجع السائل على سؤاله، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»^(١).

وأفضل منه أن يفتح باب الاستعلام عن المشكل، ويفتح باب النقاش والحوار، عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حُوسِبَ عَذَّبَ». قَالَتْ

(١) أخرجه البخاري برقم: ٩٩.

عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨] قَالَتْ فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكُ»^(١).

وأبلغ من هذا وذاك أن يتسع صدر الداعي بهدوء تام، لسماع الشبهات التي تأتي وينفتح قلبه لتلقي الرد عليه من صاحب شبهة، سواء كان بأدب أو غير أدب من المعترض، ويا لهول المصيبة إن خرج الداعي عن حدوده من الغضب عند سماع شبهة أو اعتراض.

أجل لقد سمع النبي ﷺ شبهات أصحاب الشبه، وردّها وفندّها دون غضب ولا تذمر، ولم يترك صاحب الشبهة ليكون عرضة للشيطان، بل نهى أن يكون المرء عونًا للشيطان على أخيه^(٢).

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاضَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»^(٣).

وصرح السائل يومًا لرسول الله ﷺ بأنه سيشدد عليه في المسألة، فَعَنْ

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٠٣، ومسلم برقم: ٢٨٧٦.

(٢) تقدم الحديث ص ٢٠٩.

(٣) أخرجه مسلم برقم: ١٣٢. قال الإمام الخطابي في «معالم السنن» ٤: ١٤٧: «قوله: «ذاك صريح الإيمان»، معناه: أن صريح الإيمان هو الذي يمنعكم من قبول ما يلقيه الشيطان في أنفسكم، والتصديق به، حتى يصير ذلك وسوسة لا يتمكن في قلوبكم، ولا تطمئن إليه أنفسكم، وليس معناه أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، وذلك أنها إنما تتولد من فعل الشيطان وتسويله، فكيف يكون إيمانًا صريحًا».

أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ، فَأَنَاحَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَكِيٌّ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ. فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَكِيُّ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ أَجَبْتُكَ». فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَأِلْتُكَ فَمَشَدَّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ، فَلَا تَحِدُ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ. فَقَالَ: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ» فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، اللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أُنْشِدُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أُنْشِدُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أُنْشِدُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَانِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فَقَرَائِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتُ بِهِ، وَأَنَا رَسُولٌ مِنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامٌ بِنِ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرِ^(١).

إن الحقيقة التي لا مرأى فيها هي أن سعة صدر النبي ﷺ لضمام بن ثعلبة وأمثاله كانت المغناطيس للدخول في الإسلام، والثبات في تعاليم الشرع، وإن جادل السائل وناقش: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» [المجادلة: ١].

ولا ينقضي عجبي من تصرف نبي الرحمة، صاحب الشغل الشاغل، والأعباء الكثيرة، والنبي الموكل بالأمة، والقاضي، ومسير الجيوش، تأتي من تطلب منه الطلب فلا يأخذ تفاصيل الطلب، بل يمد يده للعون بدون حدود، اسمع إلى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يحكي: أَنَّ امْرَأَةً كَانَتْ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ،

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٣.

فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً ! فَقَالَ: «يَا أُمَّ فُلَانٍ، انْظُرِي أَيَّ السَّكِّ شِئْتَ حَتَّى أَقْضِيَ لَكَ حَاجَتَكَ»، فَخَلَا مَعَهَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا^(١).

لقد فتح لها الحبيب ﷺ باب الحوار، والسؤال، والطلب، ولم يستفسر: أهى حاجة دنيوية، أو أخروية، خصومة مع أحد، أو طلب شخصي! اللَّهُمَّ فصل وسلم وبارك عليه.



(١) أخرجه مسلم برقم: ٢٣٢٦.

القاعدة التاسعة والخمسون

٥٩. وازن بين مدح الصالح وذم الخطأ،
وحذار الاقتصار على أحدهما.

لا أعرف مفسدًا للحقيقة الصالحة من الجنوح والتطرف، وإن من أهم عوامل تثبيت الحق إعطائه حجمه الصحيح اللائق، فليس المدح بأكبر من حجمه إلا نوع فساد، ولا التركيز على ذم الغلط دائمًا إلا من المرض.

وما أسرع دخول الداعي إلى قلب المدعو إذا كان بواسطة مدح جوانب الخير في شخصه، فقد كان النبي ﷺ، يُحَسِّنُ الحِسنَ وَيُصَوِّبُهُ، وَيَقْبَحُ القبيحَ وَيُوهِّنُهُ، فلقد أخذ بزمام قلب عدد من الأصحاب بمدح الجانب الحسن فيهم، كما ثبت عنه أنه قَالَ لِلأَشَجِّ - أَشَجَّ عَبْدُ الْقَيْسِ - : «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاءَةُ»^(١).

وما أجمل دعوة النبي ﷺ لابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقيام الليل، عندما تحدث مع أم المؤمنين زوجه المصون حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعن أخيها عبد الله، وقال لها: «نِعَمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ». فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا^(٢).

أجل؛ هو الوصول للمراد، وإخراج النصيحة مغلفة بمدح جانب الخير

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٧.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٧٣٩، ومسلم برقم: ٢٤٨١.

في المنصوح، ثم إبداء النصيحة المرادة، سواء أكانت في الوقت نفسه، أم في وقت آخر.

لقد جذب الحبيب ﷺ قلبَ عمر بين راحتيه من كل جوانب حكمته، وكان منها تعزيز الجانب الصالح فيه ومدحه بما هو أهله، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدْيَ، وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجْرُهُ». قَالُوا: فَمَا أَوْلَتْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الدِّين»^(١).

وما يكاد ينقضي عجبِي، كم أثَّرت كلمات النبي ﷺ في أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو المتواضع الذي يبالغ في هضم حظوظ نفسه، عندما ينقل بعد وفاة النبي ﷺ مدح الحبيب له، فيقول: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَظَلَّتِ الْخُضْرَاءُ، وَلَا أَقَلَّتِ الْغُبْرَاءُ عَلَى ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْكَ يَا أَبَا ذَرٍّ»^(٢).

ومثل هذا الأب الحكيم والقدوة الصالحة يتقبل منه المنصوح، مهما كان قوي الشخصية، وذلك عندما يرى أن القدوة يقدر الجوانب الصالحة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ: «يَا بِلَالُ، حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ دَقَّ نَعْلِكَ - يَعْنِي: تَحْرِيكَ - بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ». قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي: أَتَى لَمْ أَنْظَهَرْ طُهُورًا فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٣، ومسلم برقم: ٢٣٩٠.

(٢) أخرجه ابن حبان برقم: ٧١٣٢، والحديث صحيح.

أَنْ أُصَلِّيَ^(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَاصِبًا رَأْسُهُ بِخِرْقَةٍ، فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بَنِي أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ خُلَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ، سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ»^(٢).

ومع أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه كان موقف آخر انتقد فيه النبي ﷺ الخطأ، فقد روى أحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا شَتَمَ أَبَا بَكْرٍ وَالنَّبِيَّ ﷺ جَالِسًا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْجَبُ وَيَتَبَسَّمُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ رَدَّ عَلَيْهِ بَعْضُ قَوْلِهِ فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ فَلَحِقَهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَانَ يَشْتُمُنِي وَأَنْتَ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضُ قَوْلِهِ غَضِبْتَ وَقُئِمْتَ، قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضُ قَوْلِهِ وَقَعَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لِأَقْعُدَ مَعَ الشَّيْطَانِ»، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ حَقٌّ مَا مِنْ عَبْدٍ ظَلِمَ بِمُظْلَمَةٍ فَيُعْضِي عَنْهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا نَصْرَهُ^(٣).

ومن فادح الأخطاء الدعوية البخل على المدعو بالمدح والثناء على إيجابياته، تحت دعوى خوف الفتنة عليه، ثم إذا أخطأ قام بنصيحته ناصح لم

(١) أخرجه البخاري برقم: ١١٤٩، ومسلم برقم: ٢٤٥٨.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٦٧.

(٣) رواه أحمد في مسنده برقم: ٩٦٢٤، وقال محققو المسند: حسن لغيره.

يعزز جوانب الخير عنده يوماً، ولم يسمع منه المدح إلا غيباً، كإنفاق مَادِر^(١) أيام الشدة، ثم يُنْتَقَدَ وَيُقَالَ فيه: إن فلاناً لا يقبل النصيح، وهذا من سوء تأديب نفسه، وقلة الاعتناء بأمراض القلوب.

لا والله وبالله، ما هي إلا مناهجنا العقيم التي لا نمشي فيها على وفق السنن النبوية تماماً، ولكننا نأخذ بجانب من الجوانب ونعممه على كل الحالات.

مثلنا كمثّل الذي أخذ جانب التأديب من النبي ﷺ عندما غضب مرة في وجه أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وعمم على سائر أيامه مع شريكة حياته، مدعيًا أن هذا من الخلق النبوي.

هيهات! أخطأت في استعمالك الأسلوب، هذا تأديب مرة كان من النبي ﷺ لا خلق دائم، والخلق الدائم أنه كان بَسَامًا ضَحَّاكًا، يتهلل وجهه بالبشر، إذا دخل بيته استنار البيت بلطف طلعتة، وسارع أهله شغفًا بخدمته، وطلبًا لرضاه، ورغبة في القرب منه.

ثم عَكُسُ هذا تمامًا خطأ يَبِّن، فلا إظهار المحاسن وحب الرسالة والدعوة يسوغ لك السكوت عن الخطأ، ولا الكلام على الخطأ يبيح ترك المديح للمحاسن.

فمن ابتغى الطريق الواضحة، والدعوة الناصعة، فليمدح الخير في المدعو، ولا يسكت عن الزلل إذا أحيطت الموعظة بجلباب المحبة.

(١) رجل بخيل، يضرب المثل بإمساك يده.

القاعدة الستون

٦٠. أنجح دعوتك بحسن التواصل مع الناس ومشاركتهم المناسبات الاجتماعية.

العاملون في الحقل الدعوي كثيرون، والناجحون منهم قلة، ومن أشد المخفقين في الدعوة - بحسب نظري - بعض أساتذة الجامعات، يتعامل مع الطلبة كأنه رئيس سجن يريد تأديب المجرمين، يتودد إليه الطالب فيجيبه بأبشع الألفاظ، ويسأله بأدب فيزجره، يسخرون من الطالب الضعيف والمؤدب، ويدخلون بالصراعات مع الطالب القوي والسيئ، ويسحبون فظاظة الألفاظ على عموم الطلاب بدعوى أنه مر عليهم من يريد إفلاس الدرس من القراءة، ويبتغي إفساد حصة التعليم باللهو، وما هكذا تكون المعالجة.

هذا فضلاً عن بعدهم عن المناسبات الاجتماعية من زفاف، ووليمة عرس، وتبريك بمولود، أو بيت جديد، أو عيادة مريض، أو تعزية بموت عزيز...

وليس كلامي عنهم أجمعين، وحاشا لله، ففيهم الأب الذي حب في العلم، والمربي الذي علم بحاله قبل مقاله، والصالح القدوة من يستسقى الغمام بدعواته، لا أنكر أن في علماء الكليات من كان للمتعلمين إماماً، نظراته نظرات تربية، وتعليقاته بناءة، كلما دخل غرفة الدراسة كأنه غيث أصاب أرض قوم قحطوا، فرح الطلاب بمقدمه، وبثوا له همومهم فعالجها، لم يدخل إلى درس الطلاب فحسب، بل سكن في قلوبهم وخالط حياتهم، ففي

أفراحهم له مشاركة، وفي أتراحهم يقدم المواساة، وعند كُرباتهم يعمل في مسح الدموع والغموم، هذا الذي ينطبق عليه اسم الداعي إلى الله، فله أبو ما أكبره.

لا عجب أن ترى هذا الخلق فيمن يقتدي بالحبيب ﷺ، وهو من هو في الانشغال وضيق الوقت، وكثرة المهام، وثقل الأعباء، ثم هو يتفقد امرأة لا يلتفت إليها أكثر المجتمع، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه، أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد ففقدتها رسول الله ﷺ فسأل عنها، فقالوا: ماتت، قال: «أَفَلَا كُنْتُمْ أَذْنُتُمُونِي»، قال: فكانهم صغروا أمرها، فقال: «دُلُونِي عَلَى قَبْرِهَا». فدلوه فصلي عليها ثم قال: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ»^(١).

عن عتبان بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ أتاه في منزله فقال: «أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أَصِلِّيَ لَكَ مِنْ بَيْتِكَ؟». قال: فأشرت له إلى مكان، فكبر النبي ﷺ، وصففنا خلفه، فصلَّى ركعتين^(٢).

ولا تعجب إن رأيت من احتفاء النبي ﷺ أنه يضرب خيمة في المسجد لمزيد الاعتناء بالأخ المصاب، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أُصِيبَ سَعْدُ يَوْمَ الْحَنْدَقِ فِي الْأَكْحَلِ، فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ خِيْمَةً فِي الْمَسْجِدِ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ، فَلَمْ يَرْعُهُمْ، وَفِي الْمَسْجِدِ خِيْمَةٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ، إِلَّا الدَّمُ يَسِيلُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٥٨، ومسلم برقم: ٩٥٦. ومعنى: تُقْمُ. أي: تزيل منه القمامة وتنظفه.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٤٢٤، ومسلم برقم: ٣٣.

أَهْلَ الْحَيَمَةِ، مَا هَذَا الَّذِي يَأْتِينَا مِنْ قِبَلِكُمْ؟ فَإِذَا سَعَدَ يَغْدُو جُرْحُهُ دَمًا، فَمَاتَ فِيهَا^(١).

فمن أراد نجاح الدعوة، فليتعرف إلى الناس في مناسباتهم الاجتماعية، وفي أفراحهم وأتراحهم، وسرورهم وأحزانهم، مع التوازن التام الذي لا يطغى على تحصيله العلمي ولا يؤثر سلباً في بيته وأولاده وأموره المهمة الأخرى، فقد صدق ﷺ القائل لأحد صحابته: «قُمْ وَنَمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ؛ فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرُؤُوكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِجْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(٢).



(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٦٣، ومسلم برقم: ١٧٦٩.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٦١٣٤، ومسلم برقم: ١١٥٩، ومعنى: زورك: أي: الضيف الزائر.



الخاتمة

وأختم العبارات هنا بقولي: ذاق طعم الدعوة إلى الله ستة:

أ- من لم يخل يوم عنده من دعوة

ب- من أمسى كالألمع قد هدى شخصاً جديداً

ج- من رأى ثمار دعوته بعينه

د- من ثبت على الهداية بسبب دعوته

هـ- من دعا إلى الله بظرف أو بلد صعب

و- من رأى ثماراً عظيمة من خلال عمل صغير.

عنوان المؤلف لإبداء الملحوظات وتصحيح الأخطاء:

هاتف ووتس أب: ٠٠٩٠٥٣٤٠٥٥٩٣٠١

البريد الإلكتروني:

aboalnsr1392@gmail.com

فهرس المحتوى

- تقريظ الأستاذ المربي عاطف بيانوني حفظه الله ٥
- تقريظ العلامة الداعية الشيخ عطية الوهيبي حفظه الله تعالى ٦
- تقريظ فضيلة الشيخ سلمان بن عبد الفتاح أبو غدة حفظه الله ٨
- المؤلف في سطور: ٩
- الإهداء: ١٢
- المقدمة: وفيها ملخص كامل الكتاب ١٥
1. نوع في أسلوبك للمدعو بين الأسلوب العقلي والقلبي والعاطفي والمصلحة
المادية والقبليّة وغيرها من غير قرب من النفاق. ٢٥
2. الاتصال بالخالق تبارك وتعالى قبل كل اتصال بمخلوق وبعده ٣٠
3. اسأل الله تعالى الإخلاص والقبول قبل الدعوة وبعد كل نجاح دعوي ٣٤
4. ادرس فن الدعوة إلى الله وإن لم تكن متخصصاً بالعلم الشرعي ٣٨
5. الدعوة صنعة أكثر الصحابة ﷺ، بخلاف الفقه والتحديث فإنه تخصص
وهو قليل ٤١
6. تحقق من لفظ الآية وتفسيرها عند الاستشهاد بها ٤٤
7. تحقق من ثبوت الأحاديث قبل الاستدلال بها ٤٧
8. تحقق من صلاحية النص للحادثة قبل الاستدلال به ٥٠
9. التحقق التام من صحة المعلومات التي تدعو بها إلى الله ٥٦
10. الدعوة الصحيحة لا تكون إلا على بصيرة ٦٠
11. كن لين العريكة في قولك، خفيف الوطأة في عباراتك، وترفق بالمدعو

- ويسر في اختيار الأحكام ما لم يكن إثماً. ٦٣
12. لا تتوقع من الناس أحد النقيضين: الاستجابة ولا الرفض، ولا الإقبال ولا الإعراض، ولا المدح ولا القدح. ٦٨
13. لا تبال بالمكذبين ولا تغتر بالموافقين، ولك في الحبيب ﷺ أسوة حسنة... ٧١
14. تعلم حكمة الحبيب ﷺ مع المعارضين له. ٧٥
15. ابدأ دعوتك مع المخاطب من حيث حاجته لا ما حضر في ذهنك. ٧٩
16. راع الربط الصحيح بين الكلام والمناسبة والشخص المتكلم معه. ٨٤
17. شخّص أمراض المدعو وابدأ بأخطرها فقط. ٨٩
18. راع اتباع السلم الدعوي في دعوتك. ٩٤
19. حدث الناس بالقدر الذي يناسبهم وقرب إليهم دعوتك بقدر قربهم من الدين. ١٠٠
20. ضع مقدمة لاثقة لنصيحتك إن احتاج الأمر. ١٠٤
21. إياك أن تطيل في المقدمة مهما كانت الظروف. ١٠٧
22. راع شروط المقدمة وإلا انقلبت ضرراً. ١١١
23. النصيحة بغير فضيحة. ١١٤
24. الحرص على النصح لا الحرص على الانتقاد. ١١٨
25. البيان قبل الانتقاد. ١٢٢
26. إظهار الحب للمنصوح والتواصل معه قبل الهجر في الله. ١٢٥
27. الدعاء لمن ترجو هدايته قبل الدعاء عليه. ١٢٨
28. ضع مغناطيساً للكلامك، واحذر أن تخرجه جافاً. ١٣٢
29. بين حكم الله للمدعو، لكن لا تُشعر المدعو أنه سيحل عليه العذاب ١٣٦

30. أنصح ولكن قد يكون المنصوح عند الله خيرًا مني ١٣٩
31. هو عاص لكنه يحب الله ورسوله ١٤٣
32. تذكر أنك تحمل دعوة، لكن لا تملك جنة ولا نارًا ١٤٦
33. الحرص على نجاة المدعو لا إلقاء المسؤولية عن الكاهل ١٤٩
34. إذا لم تقرب المدعو من الله فاحذر أن تزيد في بُعده ١٥٢
35. دعاة لا قضاة ١٥٦
36. اجعل هدفك ساميًا كبيرًا، ولا تقبل بالأقل عند القدرة، وليكن شعارك: «لأهدين الناس أجمعين». ١٥٨
37. اربط مريد الهداية بالإسلام لا بنفسك ١٦١
38. ارحل في سبيل الدعوة ولا تنتظر مجيء الناس إليك. ١٦٤
39. حرك الإيمان في قلوب الناس فكثير منهم من يحتاج إلى تحريك يسير... ١٦٧
40. شَخَّصْ حقيقة المنكر وبديله قبل الإنكار ١٧٢
41. وازن في خطابك بين الترغيب والترهيب ١٧٧
42. علق القلب واصرف الوقت على من سمع، لا من أعرض ١٨١
43. افرح بالتحسن التدريجي ولا تفرح بالانقلاب الفوري ١٨٣
44. ارض بالقليل قبل الجزيل ممن لم يرسخ في قلبه الإيمان بالله الجليل ١٨٧
45. الدعوة إلى الأصول قبل الفروع. ١٩١
46. قدم الإحسان للناس عند دعوتهم ١٩٤
47. التيسير في الدين هو الأصل بضوابطه ١٩٧
48. التفهيم لا التلقين، والدليل مع التعليل ٢٠١
49. ركز على اللب المقصود لا القشر المردود ٢٠٤

50. التربية لا التعرية ٢٠٧
51. علّم المحكم قبل المتشابه، والمختلف فيه بعد المتفق عليه. ٢١٢
52. حدث كل مدعو بما يرقى إليه عقله، وإياك وشدة الإغراب عليه ٢١٦
53. وازن في حديثك بين الوعد والوعيد الدنيوي والأخروي ٢١٩
54. كلما أکثرت من الدعوة عادت على نفسك بالخير والثبات ٢٢٣
55. نوع في خطابك المباشر وغيره ولا تقتصر على أحدهما ٢٢٦
56. سخر دعوتك فيما يغير السلوك، لا ما تطرب له الأذن ٢٢٩
57. صنف الناس في دعوتك تصنيفاً دقيقاً، واعمل على تحسين كل صنف
درجة واحدة. ٢٣٢
58. وسع صدرك لمن سألک، وشجعه على الاستفسار، والنقاش والحوار. ٢٣٧
59. وازن بين مدح الصالح وذم الخطأ، وحذار الاقتصار على أحدهما. ٢٤١
60. أنجح دعوتك بحسن التواصل مع الناس ومشاركتهم المناسبات
الاجتماعية. ٢٤٥